أحببتُ شرطياً

أحببتُ شرطياً

قصص قصيرة

دليلة ذيب
شقراء الشاوية

كلاما
للنشر والتوزيع

كلاما
للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى 2022
جميع الحقوق محفوظة للناشر

ردمك: 978-9931-839-32-3
الإيداع القانوني: السداسي الأول جانفي 2022
صنف العمل: قصص قصيرة
العنوان: أحببتُ شرطياً
المؤلف: دليلة ذيب (شقراء الشاوية)
تصميم الغلاف: تقي الدين بن دردوخ

كلاما للنشر والتوزيع

التحصيص الاجتماعي 2 بلدية هواري بومدين ولاية قالمة
kalama.edition@hotmail.com
tel/ fax 037.24.11.19

الآراء الواردة في الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

الإهداء

إلى عشّاق الحرف..
إليهم أقدم هذه القصص..

أحببتُ شرطياً

شرطي أضاء لي الدنيا وتوهجت به مصابيح حياتي، بعدما كانت مطفأة لمدة عشرين عاما، كان لقائي به منذ أكثر من سنتين بمكتبه، حين هممت بتقديم شكوى كنت بقاعة الانتظار قبل أن يطلبني بمكتبه، دلفت الى مكتبه فنظر لي مبتسما دون تكلف:

– تفضلي سيدتي بالجلوس، ارتاحي ..

جلست والحزن بعيني:

– أريد أن أرفع شكوى..

نظر إليّ من وراء نظارته وحرك الكرسي وهو يدقّ على مكتبه الخشبي بقلم يمسكه بين السبابة والإبهام:

– أظنني رأيتك مِن قبل؟

ثم واصل حديثه:

– آه، تذكرت، أنت من قدمت شكوى إلى المفتش الجهوي سنة ست عشرة وألفين صح؟ وفُتح تحقيق وأُنْصِفْتِ حينها والكل أخذ جزاءه؟

– نعم، وهذا ما جعلني أدفع فواتير شكواي وجرأتي ومطالبتي بحقي يومها.

قال:

- لابأس ناوليني عريضة الشكوى

و شرعتُ في سرد الوقائع و لم أشعر إلا و دمع المآقي يفضحني.. ناولني منديلا ورقيا أخرجه من جيب قميصه وطلب منّي مسح دموعي وأخبرني أنه لن يظلم أحد عنده ووعدني باسترجاع حقي، و هذا ما حدث فعلا، فالتحقيق الإداري كان إيجابيا، سلمته الشّكوى مرفقة بالأوراق والمستندات و ما إن هممت بالخروج حتى طلب مني رقم هاتفي لكي يتصل بي ويطلعني على مستجدات الشكوى، غادرت ولكنني لم أدر أنني نسيت قلبي على مكتبه.

عدت إلى البيت راجلة أستمتع بزخات المطر الباردة حين تلامس جسدي وأسئلة تنهش عقلي كلما تردد صدى صوته الجميل في جوف روحي، أيعقل أن أعشق شرطيا؟ لم أشعر بعناء المشي رغم طول الطريق حتى وجدتني واقفة أمام باب بيتي، عند ولوجي عتبة البيت رميت حقيبتي وجلست على الكرسي المتأرجح أراقب حبات الودق تنقر نافذتي المطلة على الطريق المؤدية إلى مقر الأمن مرّت ساعتان ولم أحرّك ساكنا كأنني جسد بلا روح، كيف لا والروح قد سلبت مني.

عندما زحف الليل وأرخى ستائره رنّ هاتفي ورنّ معه قلبي وانتفض الجسد كأن الروح عادت إليه، كيف لا والمتصل هُو؟ نعم هو؟ الشرطي، ألقى التحيّة فاخترقت قلبي كالسهم، واسترسل يحدّثني وأنا أنصت إلى نبرة صوته العذبة وهو يقدّم دعمه ومساندته لي.

توالـت الأيـام وروحـي تقـترب مـن روحـه شـيئا فشـيئا حتـى صـار لا يفـارق أحدنـا الآخـر إلا عنـد خلودنـا للنـوم، كنـا نتحـدث عـلى الهاتـف طويـلا حتـى ننـام دون أن نشـعر وكأننـا روح واحـدة لجسـدين.

طلـب منـي أن نلتقـي وهـولا يـدري أن هـذا الطلـب هـو أمنيتـي فأنـا المتيّمـة بـه .

التقينـا وتبادلنـا أطـراف الحديـث حاولـت أن أعـرف عنـه بعـض تفاصيـل حياتـه، أخـبرني أنـه عـازب وأنـه أصغـر منـي لم يؤثـر فـارق السـن عـلى مشـاعري نحـوه لأن الحـب لا يحـدده العمـر .

مـرّت شـهور عـلى علاقتنـا والأحـلام رفيقتنـا إلى حـين تواعدنـا بإحـدى الفنـادق في مدينـة عنابـة وكانـت الصدمـة عندمـا اكتشـفت تاريـخ ميـلاده واتضـح أنـه أكـبر منـي ومتـزوج وأب لطفلـة، أحسسـت كأنّ صرح أحلامـي هـوى منـذ أوّل عاصفـة خيانـة ضربـت أسـواره، قـرّرت مغـادرة الفنـدق والعـودة إلى بيتـي فـراح يتوسّـل حتـى ركـع باكيـا مقبّـلا قدمـي كـي لا أتركـه لأنـه يـرى في فراقنـا موتـا مسـتعجلا، نظـرت إليـه نظـرة حنـين، رقّ قلبـي احتضنتـه طويـلا ومسـحت دموعـه، طلبـت منـه أن يمنحنـي وقتـا كافيـا كـي أتخـذ قـرارا.

ارحمينـي... فأنـا مـا أحببـت سـواك بعـد أمـي... فأنـا ليـس لـدي إلا أمـي التـي أودعتهـا الـتراب وأنـتِ «دليلـة»

والتـي تنعتينهـا زوجتـي هـي أعظـم خطـأ في حيـاتي منـذ أعـوام ونحـن منفصـلان لا يجمـع بيننـا أيّ شيء سـوى ابننـا.

كذبتـه.. كيـف لزوجـين يعيشـان تحـت سـقف واحـد لا يتقاسـمان كل شيء؟. لكـن كان يقسـم بـالله أنـه صـادق، ويرجـوني أن أمنحـه فرصـة ليثبـت صدقـه وحبّـه لي .

أمضيـت ليـالي وأنيـاب الحنـين إلى حضنـه تنهشـني وروحـي تتأرجـح عـلى حبـلي العقـل والقلـب، لكننـي بعـد مـدّ وجـزر للذكريـات والشـوق قـرّرت دون وعـي منّـي أن أمنحـه فرصتـه ومـن قـال أننـي غاضبـة منـه أو حاقـدة عليـه؟ ومـن قـال أنـه يهمنـي إن كان صادقـا أو كاذبـا؟ فهـو كلّي المفقـود وجزئـي الباقـي.

فعـل كلّ شيء كـي أصدّقـه، كان كلـما عـاد إلى البيـت فتـح كامـيرا الهاتـف لأرى كل شيء، مـا أثـار اسـتغرابي هـذه المـرة هـو جلوسـه منفـردا عـلى طاولـة الأكل ونومـه عـلى أريكـة وفي غرفـة وحـده، لم أر زوجتـه يومـا، وراح إلى أبعـد مـن ذلـك حيـث أعطـاني كلمـة المـرور الخاصـة بحسـابه الفيـس بـوك «ذئـب الصحـراء» والغريـب أني طيلـة الوقـت معـه إمـا في الفنـدق أو في بيتـه الخـاص لا تتصـل بـه زوجتـه ولا تسـأل عنـه، فعندمـا يحتاج لمـا يلـزم ابنهـا أو يلـزم البيـت تبعـث رسـالة لا تحيـة ولا سـلام بـل رسـائلها مبـاشرة ومختـصرة جـدا منهـا (أحـضر البسـكويت والحفاظـات لابنـك) لم يكـن يهمّهـا غـير الأمـور الماديـة فقـط.

مـرّت الشـهور الأولى ونحـن نتواعـد، وهـو يفـرّ منهـا إلى أحضـاني كالطفـل الـذي يبحـث عـن ملجـأ لـه، بعـد أن تركتـه وحيـدا قبـل شـهر رمضـان بيـوم واتجهـت لبيـت والدتهـا والتـي كانـت تسـكن وحدهـا رفقـة شـقيقتها، ولأنـه مـل مـن

تصرفاتها، فقد طلبت منه شرط معاملتها الحسنة واقتسامها للفراش معه هو تنازله عن ملكية شقته المتواجدة بالقطب الثقافي، وتناست أنها مدينة له بما وصلت إليه فهو من كان يوفّر لها الأكل والشرب ويقوم بتنظيف البيت ويعتني بالطفل حتى تكرّس زوجته وقتها للدارسة فقط لتتحصّل على أكبر معدل بالجامعة ورافقها حتى تحصلت على الدكتوراه، وتوسّط لها لتدرّس بالجامعة، وكان لها السند رغم معاملتها السيئة له. ولأنها تعلم جيدا أنها أول امرأة في حياته ولأنه يفتقر إلى علاقات عاطفية فظنت أنه لم يعرف قبلها ولن يعرف بعدها، قرّر الطلاق أخيرا وتجري الرياح بما لا تشتهي السفن تعرف علي أنا «دليلة» وأحبني حبا جنونيا حدّ العبادة.

طلّقها بالتراضي بعدما وافق على شروطها التعجيزية أواخر الخريف من نفس السنة التي عرفته فيها، بعدها طلب مني الزواج لكنني رفضت فأنا لا أحب زواجا مدنيا أشبه بحكم جزائي بالسجن وأخبرته أني أحب العقد العرفي فهو يشعرني بالحرية وأقنعته أن حبنا أكبر من أن يوثّق بعقد مدني.

فإننا نشهد الله على رباطنا المقدّس ونحتسب عنده زوجا وزوجة وهذا يكفينا.

تسارعت عجلة الأيام، وفي عيد ميلاده بتاريخ الثالث والعشرين من شهر أغسطس بينما كنا بالفندق نحتفل شعرت بألم بالرحم وصداع شديد، طلب مني أن أرتاح وجعلني أنام وأنا أتوسد ذراعه كالطفلة، في الصباح عدنا

إلى سـوق أهـراس وحـدّد لي موعـدا مـع طبيـب النسـاء.

في اليـوم المـوالي ذهبـت إلى الطبيـب وحيـدة لارتباطـات حبيبـي المهنيـة وبعـد فحـصي أخـبرني الطبيـب أني حامـل بتـوأم، صدمنـي الخـبر لأنـه لم يكن مبرمجـا فأنـا أحـضّر رسـالة الدكتوراه وأسـافر للتظاهرات الثقافيـة وبصـدد طبـع عـدة مخطوطـات وتـوأم يـا الله كل شيء مقـدّر.

بعـد ثلاثـة أيـام مـن العمـل والتنقـل بـين البلديـات طلـب منـي حبيبـي أن نلتقـي ببيتـه وكان لـه مـا طلـب، تحدثنـا وأخبرتـه فبكـى مـن الفرحـة وقـال كـم كان حلمـي أن يكـون لي طفـلا ثانيـا وهأنـذا سـأرزق بطفلـين وأخـيرا حتـى ابنـي سيسـعد بالخـبر فهـو دائـما يطلـب منـي أن أهديـه أخـا أو أختـا... لكـن؟ هـو كان سـعيدا وأنـا لأجـل سـعادته تقبّلـت الأمـر رغـم أنـه أزعجنـي لمّـا أعلمنـي الطبيـب، ولأننـي غيـورة جـدا وبغـيرتي أصبـح عصبيـة فقـد كان يُفَتَـش وهـو المفتـش، أفتـش هاتفـه.. ملابسـه وكل تفاصيـل جسـده.. كأني موبـوءة بحبّـه، كنـت أعشـق رائحـة أنفاسـه أطلـب منـه أن يفتـح فمـه ويتنفـس وأنـا أمـلأ رئتـي مـن أنفاسـه كنـت أقبّـل كل مسـاحة عـلى جسـمه .

في يـوم مـن الأيـام كنـت أقـضي عطلتـي بالحمامـات في تونـس اتصلـت بـه فوجدتـه يتحـدث وبقيـت أتصـل كالمهووسـة وهو لم يقطـع الاتصـال وبقـي يتحـدث لأكثـر مـن سـاعة، راودني شـك فتـك بمشـاعري فقـررت الرجـوع لسـوق أهـراس ليخـبرني مـع مـن كان يتحـدث؟ انطلقـت حينهـا صـوب مدينتـي وعـاودت الاتصـال ولم يـرد.

قصدت منزله وأنا أتمنى أن تطوى الطريق أمام سيارتي وعند وصولي إلى حيّه لمحته يهمّ بالنزول من سيارته وهذا ما أثار جنوني وغضبي، إنتبه لي وفهم أنّني رأيته وقد غيّرت وجهتي فانطلق كالمجنون وراء السيارة التي كنت على متنها، أوقفني وحاول تهدئتي وأخبرني أنه لم يغلق الهاتف لأنه خشي غضبي وانفعالي وهذا يؤثر على التوأم لم أصدق ما قاله لي طلبت منه أن يريني المكالمة فرفض وقال لي:

– لا، لن أريك الهاتف حتى تتعلمي كيف تثقي في. أنت تعلمين أنني لست زير نساء ، ولا واحدة يمكنها أن تتساوى أو تقارن بك وأنت الحُسن ومنبع البهاء يا شاوية.

لم يقنعني كلامه وثارت ثائرتي، رميت بهاتفه على الأرض فتكسر وكسرت زجاج سيارته وبقيت أصرخ وأبكي وأردّد:

– خائن مع من تحدثت؟

وهو رغم ما حدث يتوسل لي:

– أ مهبولة أني نحبك وأنا لست بخائن ثقي بي...

كنتُ صماء لا أسمع إلا لأصوات الشك عدت إلى بيتي وأنا أبكي وما هي إلا ساعة حتى أحسست بسائل ساخن ينساب على فخذي، مددت يدي لأتحسّس ما الذي خرج مني فكانت المصيبة أعظم، الظاهر أنني سأجهض التوأم ثمرتي حبنا أنا والشرطي، تمالكت نفسي وتكتمت على الأمر وانتظرت حتى الفجر لكن الدماء لم تتوقف وبعدها أحسست بمغص ليسقط من رحمي كتلة لحمية يا الله أجهض التوأم.

عندما سمع حبيبي الشرطي بإجهاضي جنّ جنونه وبكى كثيرا واتهمني أنني أنا من أجهضت عمدا .

بعد خروجي من المستشفى قرر حبيبي الاعتناء بي حتى أتعافى تماما وبعد شفائي يذهب كل منا في طريقه.

لم أنطق ببنت شفة، ولكنه ما استطاع الهجر وعاد إليّ كعودة الطفل لأمه قبّلني كثيرا واحتضنني كثيرا.

لانجاة من غرقي اليوم ومجاديف اللقاء تكسّرت، وقد حال موج البين بيني وبينها ها أنذا من المغرقين، ولن يقال للأرض ابلعي دمعا انسكب من قهر حبنا ولن تقلع السماء عن سقينا مرارة الفراق. سآوي إلى حضن يأويني .

رغم العراقيل، المشاكل، الصعاب، العادات والتقاليد وارتباطات كل منا والبعد الجغرافي إلا أنه يبقى حبي الأوحد.

صائد الدمع

كانت تستيقظ مع تنفس الصبح بالضياء، لكنها اليوم لم تر المشهد الجميل لشروق الشمس لأنها لم تنم ولم يفارقها السّهاد وهاتف شقيقتها مازال يرن دون رد، رأسها مثقلة وعيناها متورمتان تبدو كصفصافة شاخت وحان وقت قطعها، يبدو اليوم كئيبا تتجه نحو المستشفى تلبية لنداء الخوف القابع في ركن من أركان القلب، تصعد إلى الطابق الثاني ترتدي العباءة الطبية الواقية مِن الفيروس التاجي المُندلع، انتابها شعور بأن قدميها وطئتا كوكبا آخر تنعدم فيه الحياة، ترمق المرضى المستلقين على الأسرة، تقترب مِن الغرفة رقم 14 يحاول ابن أختها اعتراض طريقها لمنعها من الدخول لكنها دفعته فتحت باب الغرفة، يا الله !! تأوهات شقيقتها الغالية وتخبطها كأنّ بهامسّ، تعجز قدميها عن حملها، يتزاحم أطفال الدمع على وجنتيها، تشهق شهقة قوية تملأ بها صدرها، ثم تزفرها مرة أخرى، لتخرج مختلطة بأبخرة الماء الذي تكون بجدار القناع الواقي، إنه اللقاء المهموم. إيماء ابن أختها يجعلها تتراجع كالثملة، ليبكر الظلام بمجيئه، تتجه لمخزن المعدات الطبية، تنزع العباءة الواقية ليحملها الحارس إلى مقبرة الإعدام، تعود إلى بيتها وقلبها ينبض بسرعة جنونية

يتعـرّق جسـدها، ترتمـي عـلى السريـر والأحـزان تُحاصرهـا كـما تُحـاصر الجيـوش القـلاع الحصينـة.

عبثـا تُحـاول النـوم، تنحـدر دموعهـا عـلى وجنتيها، صـور مرضى كوفيـد لم تفـارق مخيلتهـا، معانـاة كانـت تراهـا مـن وراء شاشـات التلفزيـون ومواقـع التواصـل الاجتماعـي اليـوم جسّـدت عـلى مـرأى عينيهـا، عالمـا جديـدا حزينـا عليهـا، كانـت تحـاول ترتيـب فـوضى الوجـع التـي بدواخلهـا، وهـا قـد فشـلت... تنظـر لهاتفهـا تحـاول التقاطـه بأنامـل مرتجفـة، تمسـك أخـيرا بحـرف الميـم الـذي يربـط هاتفهـا بسلسـال، يـا الله رقـم أختهـا سـهام نعـم «سـهام» تتصـل لتخبرهـا بـأن فـيروس كورونـا دلتـا المسـتجد أصـاب شـقيقتها «نفيسـة» بجلطـة دماغيـة وأن زوجهـا أيضـا بحالـة صحيـة حرجـة جـدا فهـو بـدوره نزيـل جنـاح كوفيـد وغرفـة 14 جانـب زوجتـه.

يمـشي الوقـت سـاخرا منهـا متباطئـا ومـع صيـاح الديـك الإسـباني الـذي اشـتراه ابنهـا «أريقـد منيـب الإلـه» « مِـن «سـوق الفـراخ» تـترك «دليلـة» غرفتهـا لتتنـاول دواءهـا وجفناهـا يطبقـان بالقـوة، تسـمع طـرق البـاب تـرد بنـبرة خـوف:

– من الطارق؟..

– لزهر.

تركـض نحـو البـاب تفتحـه وجسـدها يرتعـش، تنظـر إلى عينيـه المغرورقتـين بالدمـع.

– «نفيسة» شقيقتنا انتقلت للرفيق الأعلى

تحتضنه بقوة وصرخاتها تملأ الحي والدموع تغلي بعينيها.

– يـارب؟ يـا الله؟ عـشرون يومـا فقدنـا ابنتهـا البكـر وبالأمـس عمـي صالـح بـن قوجيـل واليـوم شـقيقتي، رحمتـك يـا رب أنـا بـشر؟

تفتـح الخزانـة تأخـذ منهـا خمـارا تلفـه حـول شـعرها الكسـتنائي وعباءتهـا السـوداء تلبسـها فـوق فسـتانها. دلفـت «دليلـة» صالـة بيـت أختهـا ووالدتهـا وشـقيقتها «سـهام» فالبيـت خـال عـلى عروشـه، فأبنـاء شـقيقتها الثلاثـة مغتربـين بفرنسـا وابنهـا الرابـع مرافـق لأبيـه المريـض أمـا ابنتهـا الصغـرى مرافقـة لشـقيقتها، جلسـت عـلى حافـة الأريكـة وهـي موجوعـة حـدّ الذهـول، بكـت بحرقـة فراقهـا لوالدهـا وهـا هـي اليـوم تحـرق بنـار فراقهـا لأحـنّ أخـت وأطيـب قلـب، لم تكـن شـقيقة فقـط بـل وصيـة والدهـا وأمهـا الثانيـة التـي ربتهـا وسـندها في الدنيـا ومدللتهـا وصديقتهـا التـي تبـوح لهـا بأسرارهـا، هـي كل جميـل في حياتهـا تبكـي ملتويـة كالثعبـان وسـط ذكرياتها الشـذية.

تدخـل الجـارة «لطيفـة» وتطلـب منهـا أن تبقـى بالبيـت لأنها مقربـة جـدا مـن شـقيقتها، تركـب السـيارة وتتجـه للمستشـفى يسـتوقفها عـون أمـن، تخـبره بـأن شـقيقتها توفيـت وهـي بقسـم كوفيـد 19 وتـودّ إلقـاء آخـر نظـرة عـلى جثتهـا لكـن عـون الأمن رفـض السـماح لهـا بالدخـول حفاظـا عـلى صحتهـا، حاولـت إقناعـه دون جـدوى فاستسـلمت وتفهمـت الأمـر وغـادرت تجر قوافـل الشـجن تحـت مطـر الدمـع الغزيرالـذي خـطّ نهـرا مـن العـذاب عـلى وجنتيهـا، بينـما تحـاول لملمـة أشـلائها المبعثـرة بـين

الذكريات الجميلة والحسرة على فراق الغالية يتصل بها ابن اختها ليطلب منها أن تعود لبيتها ويعدها أنه سيتصل بها بواسطة الهاتف ويصور لها عملية الدفن كاملة عساه يشفى غليلها، سويعات و بعد إتمام إجراءات الدفن يتصل ابن أختها، جثمان شقيقتها بالتابوت محمولة على أكتاف أخوها الوحيد من أبيها «لزهر» وإخوتها الثلاثة من أمها «ربيع» و «مالك» و «مهدي» تقوم الجرافة بحفر قبر شقيقتها مع تعالي تكبيرات المتواجدين، من أهل وشرطة ودرك وعمال البلدية وعمال المستشفى قسم كوفيد، يوضع التابوت الذي بداخله الجثمان يغطى بالتراب وهي لا تستوعب فكرة رحيل توأمها الروحي، تنهي مكالمة الفيديو وتدخل بهيستيريا وجع جعل الأرض ضيقة جدا لا تسعها، تلعثم لسانها محرقة قلبها بعد محرقة وطنها، الأوجاع تزورها تباعاً، الحزن ينتشر في خلاياها بسرعة النار في الهشيم، تصرخ و تبكي:

– من أعزي قلبي الذبيح أم وطني الجريح ؟ ماذا أخمد نار أحرقت غابات وطني الجزائر أم نار أحزاني المتتابعة وماذا بعد يا كورونا اللعينة؟..

كانت صرخاتها متداخلة مع بعضها بعضا، نُقلت إلى المستشفى بعد أن انخفض ضغط دمها ونسبة السكر في دمها وانخفضت وتيرة تنفسها، قضت ليلة كاملة في قسم الاستعجالات وهي تحت الصدمة التي أحدثت في نفسها حدثا سيئا، فقدانها لابنة أختها ثم عمها ثم أختها.. لتتساءل في قرارة نفسها:

– عـلى مـن يـأتي الـدور ياتـرى؟ عـلى أي فاجعـة سأسـتيقظ غـدا؟

في اليـوم المـوالي عـادت للبيـت مكرهـة وترجـو أن يهزمهـا النـوم لتستسـلم لـه عسـاها تنسـى قليـلا لكـن في قلبهـا وجـع يأبـى أن يتركهـا بسـبب الآثـار النفسـية المتراكمـة بداخلهـا نتيجـة فقدانهـا ثلاثـة أفـراد مـن عائلتهـا.

مـرّت السـاعات وهـي تعيـد شريـط الذكريـات الـذي أبـى الانتهـاء وهـي تحتضـن وسـادتها المبللـة بالدمـع، ليلـة مـرّت كأنهـا كابـوس .

بينـما النـوم كاد أن يلـج عينيهـا المبللتـين والاستسـلام ينـال مـن جسـمها حتـى رنّ هاتفهـا وكأنـه ناقـوس خطـر مفـزع ، نظـرت إلى الهاتـف:

– يـا الله ابـن أختهـا «محمـد» الـذي قـال لهـا مبـاشرة وبصـوت جـد حزيـن :خويلـة pa مـات.

تسـمّرت يدهـا عـلى الهاتـف والدمـع زاد غـزارة وصرخـة تنحبـس داخـل صدرهـا لـو أطلقتهـا لهلكـت وكأنهـا بـركان سـينفجر مـن شـدة ضغطـه متسـائلة:

– مـاذا يحـدث؟ بالأمـس ابنـة أختـي وعمـي وشـقيقتي واليـوم زوجهـا أنـت لا تقـول الصـدق صـح؟

– والله حميد pa مات.

تتعـالى الصرخـات مجـددا معلنـة عـن سـعير أكل الروح والجسـد، لقـد كان أملهـا في شـفاء زوج شـقيقتها الـذي رباهـا ورعاها.

كانـت أمنيتهـا أن تهـدأ عاصفـة الأحـزان ولكنهـا تفجـرت

براكين خامدة لتحرق اليابس والأخضر، ها هي اليوم تفقد زوج شقيقتها الذي بمكانة الأب الثاني...كل يوم يحفر قبرا لأحد عائلتها فالهموم ألّمت بقلبها الطيب، ولا كلام الدنى ستجد فيه السلوان، صدمتها تنفث عنها بالبكاء، فما يحدث معها خارج عن إرادتها ورغبتها وتوقعاتها، تغيب عن الوعي بعد أن خارت قواها وتذهب في غفوة في صراع مع النفس، يدور بداخلها حديث صامت، هل فقدانها لزوج أختها آخر الأحزان؟ وعلى من الدور ؟ ومن سيكون ضحية الفيروس المتجدد دلتا؟ ابنة أختها الصغرى بقسم كوفيد نقلت لها العدوى لأنها كانت مرافقة لوالدتها، أم شقيقها التحاليل أثبتت أنه مصاب بالفيروس؟.

هل ما فعله دالتا بأفراد عائلتها قدر أم مجرّد إشباع لشهوته من أجسادهم؟ وتأخذ ما لذّ وطاب من أعضائهم؟ هل هذا هو الفراق والفقدان الذي يدعون؟ وأراه يحدث في تلك المضغ التي تشهد ملاحم حزن رهيبة لم يشهدها انس ولا جان، أم أنها بعد لم تفهم أن الأرواح والقلوب تكسر مثلما يكسر الزجاج وكسرها لا يجبر؟ إنها ليست مآتم ولا صحون عزاء وعائلتها مستسلمة لذلك اللعين المخادع الفيروس دلتا بالأمس بيتا وغدا هل سيكون فيروس أومقا... أو .... رحيلهم لن يمحوه الزمن، هل فاقت كورونا علوّ أمنياتنا وأحلامنا؟.

هل فاقت من شرودها لتحمل عصا من ماء و تحارب بها طواحين الوباء؟

هـي تنتظـر صوتـا يناديهـا أو قـبرا يأويهـا وكورونـا ترفـس القلـوب وتفلـس الجيـوب وتقتـات عـلى أجسـاد الغـوالي بغـير ذنـب، أدركـت أنهـا يجـب أن تقتنـي كفنـا وتخبئـه بخزانتهـا بانتظـار دورهـا، بـل إنّهـا عـلى اسـتعداد لتـزفّ إلى قبرهـا في أي لحظـة، المخـادع فـيروس دلتـا لـن يخـبرك عـن وقـت مهاجمتـه.

عاشـت كل ليلـة وهـي تعـاني مـرارة الفقـد حيـث تلفـح جسـدها موجـة بـرد تدفعهـا لاحتضـان بطانيتهـا بقـوة فتنحـدر دموعهـا بعدمـا تحولـت أيامهـا لسـيناريوهات وجـع، تخلـت عـن مواجهـة المجهـول فـماذا سـتفعل؟ ومـاذا سـتقول؟ وقـد هـان كل غـال وأصبـح يقينـا ذلـك الغـول -كورونـا اللعينـة- الـذي أصبـح بـين أفـراد عائلتهـا يصـول و يجـول.

اقـترب منهـا طفلهـا «أوريقـد منيـب الإلـه» لمـس الدمـوع في عينيهـا وربّـت عـلى كتفيهـا بيـده وارتمـى عـلى صدرهـا وهمـس في جـرف أذنيهـا:

- أنتِ لن تموتي يا أمي؟

تضمـه ضمـة أسـى وحسرة كأنهـا لا تريـد أن تبتعـد عنـه بينما غاصـت بذكريـات طفولتـه الجميلـة رنّ هاتفهـا الـذي جعلهـا تبتسـم ابتسـامة خفيفـة ممزوجـة بالحـزن وكأن المتصـل بلسـما لجراحهـا، نعـم.. المتصـل صديقهـا فيصـل الـذي مـا توانـى عـن السـؤال عنهـا منـذ اللحظـات الأولى لمصابهـا ومحاولـة التخفيـف مـن آلامهـا.

يحاول تهدئتها لكن هيهات.. تجيبه:

- الظـروف أقـوى يـا فيصـل فأنـا فريسـة الخـوف مـن

المجهـول أخـاف أن أخـسر أحبتـي وكل مـن بنيـت عليهـم أمالي.

جريمة عشق

ذات يـوم عـلى غـير الضيـوف، قصـدت جمعهـم شـاعرة تمـشي حانيـة الخطـوات، عـلى الرمـل خلّفـت آثارهـا، غمرتهـا دفقـة هـواء متسـللة مـن قلـب البحـر، نظـرت لعينيـه الجميلتـين، تصببـت عرقًـا، امتـلأ حـوض الرغبـة بالمـاء الـزلال، أرادت شـيئا، بعـد ولادة عسـيرة مـن رحـم الصـبر، ذابـت وهـي تـرى المـوج يأخـذ الصخـر بالأحضـان، بـرق بصرهـا، رمـت بقميـص الحيـاء:

– خـذ رجـليَّ يـا حبيـب ، ولا تخـشَ وميـض غيمـي المسـتجدي مـن سـماء لمسـاتك يكفينـي حذفـك لشـمس غـروري وتكسـيرك لشـجر عنفـواني، وحرقـك لغابـات دلالي، فرجـاءً توقّـف

لا تـدُرْ أنـا ملـك بـين الشـفاه، وهـرِّب حماقاتـك في سـفن أحضـاني، تصلـب أمـام عُريهـا كتمثـال مـن رخـام، تتابعـت الحكايـات، سـكبت مـن لحظيهـا ذاكرتهـا، آلامهـا، أحلامهـا:

– لم ذراعـي مذعـورا، ليدخـن بقايـا الخطايـا، بعـد هـدر بـكارة الشـفتين الوردتـين، وأشـعل حريقهـا بالمـاء، وأخمـد نارهـا بريـاح الأرض .

«أيهـا المعفّـر بالتشـفير إنّي أحتـسي الجنـون وصـداك في

كل الأماكـن» أيقـظ فيهـا رغبـة الفنجـان للسـكر، والعتمـة للسـكير، طـرد مـن سريرهـا السـهاد، صنـع لهـا وسـادة كـذبٍ مـن حـب الحـب، جعلهـا تحلـم بإجـازة مـن كسـل الأشـواق، اسـتوت موتـا، احتراقـا، وهـو المـاء الـذي يؤكـد أن كل شيء فيـه حيـاة هـو منـه ومنـه فقـط..

بعد جريمته العاطفية تظاهر بالجنون ليبرر أفعاله وأقواله .

– ياسيدتي. طعم خيانتك مر،مر ،مر ؟

– سـامحيني.. فرحمـك أزهـر مـن مائـه وجسـدك يسـتعر لإغرائـه

تتـأَوَّهُ كقطـة بلَّلهـا المطـر، لا أحـد يخـرج مـن جسـده، ليتنـي أسـتطيع تـرك جسـدي عـلى سريـره والرحيـل إلى حيـث لا أحـد سـوانا.

– أبعـدي رُمّانـك عنـي، فهـو موسـومٌ بلمسـاته وخذيـه إلى حمالتـه التـي تشـكي أحاجـي بكائـه، فأنـا لسـت معنيـا بـما يمليـه أمسـك ومـا ينزفـه جرحـك).

تتبعـه كلمعـة المـاس، تقـترب مـن عرينـه، تحتويه،تهمـس في جـرف أذنـه، حتـى تفقـد كبريـاءَهُ الوعـيَ فيغيـب في حـضرة أنوثتهـا الجبّـارة، رقصـت حبـات العـرق عـلى سـاحة جبينـه، لفـظ أنفاسـه متأثـراً بِسُـمٍّ ثغرهـا، كَـفَّ ارتجـاف صوتِهـا، توقفـت تأوّهاتهـا، عرّتـه مـن كل النسـاء، اشـتعالًا لينتفـضَ بعـد موتـه ويعـود إلى عـالمِ الأحيـاء، صـاح وسـاح:

– أنـت حوريـة مـن حـورِ العـينِ، ولسـتِ مِـن بَنـي نِسـاءِ الأرض.

(عـم طوفـان دمعهـا وهـي تخفـي حزنهـا) آآآآآآه أَبحـثُ عـن الجـرحِ وصاحـب الجـرحِ لايـدري؟:

– أدريَ، والله أدري، لكنـي اليـوم أتهمـك بإشـعال الحريـق، بنقـل اللهـب للجميـع، بضيـاعِ روحـي في هـذا الطريـق.

بريئـةٌ مـن ظنونِـك، لسـتُ بريئـةً مـن هـوايَ وجنـوني بـك، مـن كـبِرك وجبروتِـك، مِـن صمتِـكَ الرهيـب، تقـف وبالـكاد تلـم رجليهـا، تحـاول ألّا تقتفـي أثـر خُطاهـا، ترمـي بقايـا أسـى سـنواتٍ قضتهـا أسـيرة الآخـر، لتترامـى عـلى منعـرج شـفاه وليدهـا الآني، وتطلـق سراح الطوفـان الأنثـوي، بعـد أن غـرز القـدر مخالـب ظلمـه في روحهـا، قلبهـا، جسـدها))

يـتراءى أغـلى (عمـر) وهـو ينـزع الدملـج عنهـا ليعـاود الصعـود إلى فضاءهـا، ليـؤدي فيـه صلواتـه، ليوقفـه صـوت هاتفـه النقـال رصيـدك غـير كاف لإجـراء هاتـه المكالمـة الرجـاء إعـادة تعبئـة حسـابك.

سكاكين القهر

سئل الفقير:

– من أحدث الزحام في مربط البعير؟

فقال:

– ضوضاء بالصدور تطالب بالإفراج و التحري..

قيل:

– لا يا فقير، بين الظلام والظلم فرق كبير، خذ اللجام ضعه على الأفواه حتى يتوقفوا عن الهتافات و التكبير، ومُرْ دودة القزّ أن تتوقف عن صنع الحرير، لأنني سأظل أنا الأسد وهم قطيع الحمير..

وأكمل ارتشاف نبيذه وهو يتوسط عاهرتين، رمى للفقير بعض الدنانير، وأكمل المسير مرددا:

– نحن من نهدم أماكن التعمير، ونمنع عنكم البرسيم، وماء الغدير، فمن أحسن مني الآن؟ ... أنا السكير

تنهد الفقير، لتتعالى صرخات من هم وهن في مربط البعير.

قال:

– جهنم وبئس المصير...وبئس المصير .

أسورة قلبي وقيدي الأبدي

خلف ستائر الماضي، تتخفى ذكرى ناسفة لشجرة مورقة مثمرة، مزهرة بحنان وحب ذلك العربي الشاوي، إنه الحبيب؟ البعيد القريب، فآه لو تنقطع فراملك يا زمن.. وتغير دواليبك لتعود إلى حيث كنّا، لأحتضنه ولو مرة واحدة، هو هذا وذاك وذلك، إنه أغلى خليل وأصدق حبيب؟ عيونه تتلألأ أحلاما، وصدره موطن الأمان، خلقه النبيل يسفرعن شهامة نادرة وجدية من رجاحة عقله صادرة، لكن ما هيهات على لعبة الحياة، وسخرية القدر، ويحها الدنيا؟ هي حرباء لن تزول إلى اليوم المهول، إن أعطتنا يوما حلو المذاق.. فلن تبخل من حقن الفجيعة و الآهات، لكن ما العمل؟،سيبقى القدر قدرا.

في غروب ليلة شتاء باردة، قذف حبيبي بحجر الصمت، لينهي ركض العمر، ويعلن عن اطلاقصافرة الحكم... سقط حبيبي في لمح البصر، ليرحل واختنق بحبل القدر، لأدرك حينها أنه منتهى الأجل، وبقيت وحيدة تدميني أشواك الشجن.

نعـم.. فأنـا بـشر... وآه مـن يـوم الأربعـاء المكفهـر، الـذي رحـل فيـه أبي إلى مثـواه الأخـير، ليسـتيقظ قلبـي عـلى جـرح غائـر، لم ولـن يندمـل حتـى أوارى القـبر، لم أعـد أرى سـوى حنانـه الـذي أمسـى بـردا يكتسي رمـة ذلـك الرجـل .
لا لقـد كان بـين أحضـاني، ومـن دونـه والله أعـاني، وأحطـم تماثيـل الأمـاني، كيـف لا؟

وأمـل وجـودي اختفـى، والألم اسـتوطن شراييني و كفـى؟.. (وتنهمـر الدمـوع) أقطـرة تفيـض كأس العـبر؟.. أدمغـة تمحـي كلمـة (أبي).. التـي كتبتهـا بحـبر العمـر؟.

أصبحـت الآن أؤمـن بنبـي الحـزن، ناديتـك أبي فلـم تجـب وكأنـه يـوم الفنـاء..آه؟ أبتـاه لـو علمـت بعـذابي وبـأني ولـدت ولادة قيصريـة لألم لا يـزال يترعـرع في كنفـي، لمزّقـت الكفـن وحطمـت اللحـد وغـادرت القـبر، فأيتهـا الدنيـا، يـا مبيتـا للأسـفار، مخادعـة باليابسـة والبحـار، لكـن سـيظل المـوت مالكنـا في آخر المحطـات، فمـن منـا ومـن منكـم لم تظلمـه الحيـاة يومـا سـنبقى نعيـش وسـط صراع بـين الفقـر و الغنـى ... بـين الحـزن و الهنـاء.. وبـين المـوت والحيـاة..

روح لجسد استشائي

عنـد أصـداء ذلـك اليـوم الـذي تعـرى أمـام عتبـة الإنصات، كنـت أؤدي صلـواتي عـلى جسـد رجـل يحـزم أمتعتـه نحـو شـعلة تتلـوى وراء عباءتهـا الناصعـة البيـاض، حيـث ظـلّ يسـحبني تيـار الفضـول الـذي شـدّني بحبـال هـوى التطلـع، اخترقـت خلسـة تلـك الشـعلة وأنـا متشـوقة لرفـع اللحـاف، انتبهـت إلى دمـع غزيـر يصـدر خريـرا التصـق بنهـم ليعـزف عـلى سـلم علامـات الاسـتفهام .

اسـترقت السـمع وأنـا أحـترق رغبـة لقـص بـكارة الغمـوض فسـألت التـي في جـوف الشـعلة عـن إصبـع أعـوج وتـورم مـن خيـلاء أعمـى وغبـاء بصـير وتمـرد عـلى رمـوش الفشـل يسـير فـردت بنـبرة عـزة حبـلى بالثقـة و بأجنـة الكرامـة:

– أنـا الـروح، أنـا الاسـم، أنـا الجسـم، أنـا الحبيـب في كل زمـن، رغـم الحـزن و الألم ؟

(فتنهـدت) هـه مـا خطبـك؟ تنحـى إصبعـي وارتمـى بـين أحضـان أوراق مـن مـاء يـروي مـوت الضمـير وأغـراه لـون طـلاء لظفـره الـذي أوهمـه بتغيـر المعلـم والمصيربـالله .. كيـف؟ وألـوان قـوس قـزح منـذ ولادة الكـون إلى اليـوم الأخـير إيـه هـو خاتـم الملـوك وهـو جاهـل أنـه دون «اليـد» والله دميـم وراهـم

بغنـاه ؟ وغنـاه عـن الأصـل فقـير . كيـف؟ ودون الأم لقبـه «اليتيـم» . عنـد التجـرّد منـه سـينفر الوجـود وتسـتأصل روحـه ويطمـع فيـه الـدود ؟؟؟ متورمـا معوجـا رغـم خلـود حنينـي إليـه لكنـه تمـرد عـلى يـدي وآه، سيسـتفزه الوجـع وأنـت بانتمائـه مولـع.

سـأدعه ليحاكمـه النـدم وهـو يحتسي لقمـة الشـيطان الـذي اسـتهواه خلـع إصبـع عـن يـد ناعمـة لجسـد يكتسي حلـة بيضاء ويلتحـق لحـاف بـورود حمـراء لكننـي سـأكابر وأصـبر عـلى الألم وسـيتماثل إصبعـي للشـفاء يومـا وهـو يحقـن أمـل مـن ذلـك الجسـد الـذي ينـدى بحـرارة يقـين ذلـك الحلـم، وهـو بحـب أعضائـه ينبثـق نـورا مـن وراء سـترة شـفافة لتغتـال غيمـة البـلاء فتشـح الديـم ليظـل الأصبـع ورمـا مقيـدا بالمعصـم.

تتدحـرج دمعتـان (أسرت) مـن عـين أسرهـا ضيـاء السـلم حينهـا أتسـلل إلى فـراشي وأدرك أننـي في وطـن اسـتثنائي يعجـز أمـام صرح هـرم شـكري و ثنائـي .

بين خضين

كنت أذهب كل جمعة بعد الصلاة مع أبي في المسجد (للمزرعة) « هي قرية كائنة ببلدية «المشروحة» القرية المتواضعة من يراها يحسبها جنة على الأرض.

وكأنها لوحة رسمت بأنامل أبرع الرّسامين؛ طرقاتها جميلة وزيّنت حوافها بزهر الياسمين، مساءاتها ممتعة و غروبها يجعلك ترى أرضها فتخالها زربية نسجت بخيوط الذهب، وسماءها تنسدل من كبدها قلائد من عقيق.

قرية «المزرعة» كأنها سقطت سهوا من يد طفل يمسك بكتاب الحكايات الأسطورية، أو كأنها هربت من أفلام الكرتون التي كنا نشاهدها أيام الزمن الفضي الجميل مثل *پوليانا* و*بال* و *سيباستيان* و *ليدي*

مهما تباعدت البيوت مسافات وأميال لكنها حميمية باسم العروشية..نجد دوار....(الكسالنة...البشاشحة...العوايد...)

سكانها يتآزرون في الفرح و الحزن، تجمعهم عادات وتقاليد كريمة، وحسن الجوار والمعاملة.

رغم الليالي الصيفية الحارّة ببلدية المشروحة إلا أن قرية المزرعة يحاصرها الرذاذ الكثيف والضباب الذي يلف الطرقات.

في ليلة من ليال أيلول كان أبي يحثّني أن أسرع في المشي كي يسبق الوقت لنصب الخيام وترتيب جلسة على جذوع الأشجار التي نالت منها عواصف تشرين، و يوقد بعض الأغصان الميتة ليشوي اليمام و الأرنب البري الذي اصطادهما صباحًا.

سارعت خطواتي التي كنت أجرها بتأتأة لأن الطريق كانت وعرة المسالك وأنا أحملق تحتي وأمامي خشية الانزلاق والسقوط فأنا صاحبة الجسم النحيف الذي لا يتحمل سقطة واحدة.

وصلنا إلى المكان الذي أراده أبي، قصدنا الربوة وعقلي يسرح في التفكير وقلبي يناشدني أن أدعوَ الله في سرّي أن يحفظه لي.

يناديني بصوته المبحوح :

- أحضري لي الولاعة من جيب المحفظة.

هرعت إلى محفظته، ناولته الولاعة ليشعل نارا تحت حطب يابس عبثت به السنون، بينما أستمتع بمشهد ألسنة النار تلتهم أطراف الحطب وصوت طقطقتها يدغدغ مسامعي كان أبي منهمكا في سلخ الأرنب، فور الانتهاء منها شرع بشويها، ما شاء الله أبي أنعم الله عليه بالصحة والعافية، كنت معجبة بشخصية أبي الأمازيغي الصامد قوي الإيمان والعزيمة، كم أنا فخورة بأبي.

أخيرا أتمّ طهي الأرنب في انتظار طهي اليمامة.

كنت جائعة جدا لذلك بدأت بالأكل وتقليب ناظري

لأبي الـذي كان متربعـا يشـوي اليمامـة، رأيـت عـلى وجهه سـعادة لأننـي كنـت آكل بنهـم، بعدهـا ناولنـي قربـة المـاء العـذب الـذي سـقاه مـن منبـع عـلى حافـة الطريـق الغـابي، رغبـت في التحـدث إليـه لأسـأله عـن اليمامـة إلا أننـي خشـيت تذمـره فهـو يمتنـع عـن الحديـث ولا يحـب أي شيء يفسـد عليـه نكهـة تواجـده بحضـن الغابـة التـي طالمـا اعتبرهـا عشـيقته.

ابتسـمت بفخـر لأن الله رزقنـي بـأب مثلـه، و لم أنتبـه إلا و أبي يـرد عـليّ الابتسـامة بحنـان.

بعدمـا أكملنـا التلـذذ بأكلنـا، دخلـت خيمتـي وكنـت أنظـر إلى السـماء التـي تعـرّي البـدر بحيـاء.

كنـت منهكـة القـوى والنعـاس يحتـل مرافـئ الجفـون، رغـم الأجـواء التـي بـدأت تـزرع موجـات بـاردة .

لم تمـرّ سـوى لحظـات حتـى أحسسـت بـدفء أناملـه وهـي تتخلـل شـعري المنسـدل عـلى كومـة القـش، وسـحب بطانيـة ليغطينـي بهـا ليتركنـي أسـافر إلى مدائـن الأحـلام التـي أمسـى بهـا أبي بطـلا.

اسـتيقظت عـلى ثغـاء قطيـع مـن الأبقـار و قلبـي يـكاد ينفجـر مـن الهلع...خفـت أن تدوسـني بأرجلهـا.

فصرخت:

– أبي...أبي...و شرعت بالبكاء .

لينتفض أبي من خيمته ويأتيني راكضا ليهدأ روعي.

– بنيتـي قطيـع الأبقـار لهـم راع حكيـم لا يظلـم أحـدا ويوجـه أبقـاره في المسـار السـليم ولـن يحيـد القطيـع عـن

الطريــق، نامــي بنيتــي فــالآن وقــت الفجــر.

رفضــت الاستسـلام للنـوم، قـد دبّ الخـوف بقلبـي وانتهـى الأمـر، ولا يمكننـي أن أنـام أو أعـود إلى النـوم.

قـررت أن أبقـى بجانـب أبي وأصريـت عليـه أن يحكـي لي إحـدى بطولاتـه أثنـاء جهـاده إبّـان الثـورة التحريريـة بمسـقط رأسـه «أريـس» .

بــدأ أبي في سرد حكايــاه وأنــا أســبح بمخيلتــي لأعيــش كل لحظـة معـه ولم أنتبـه إلا وشروق الشـمس يعلمنـا بقلائـده الذهبيـة التـي بـدت تـتراءى لأنظارنـا.

قـام أبي مـن مكانـه وهـمّ بجمـع الخيـم وبتنظيـف المـكان وغســل الأواني.

عنـد العـودة سـلكنا نفـس الطريـق وعبثـا حاولـت مجـاراة خطواتـه، فمهـما حاولـت أن أسـارع خطـواتي والاقـتراب منـه إلا أنـه مـا شـاء الله أسرع منـي .

عبرنـا سـكة الحديـد التـي تفصـل «المشروحـة» عـن قريـة « المزرعـة»، اتجهنـا داخـل السـوق كانـت الأجـواء دافئـة وروائـح البخـور تمـلأ المـكان، تطغـى عـلى رائحـة الخبـز التـي تنبعـث مـن مخبـزة الحـي.

اشــترى أبي قطعــة حلــوى الشــكولاتة وعلبــة عصــير البرتقال...بـدأت بأكلهـا... بعدهـا أمسـك أبي بأصابعـي وقـام بتنظيفهـا مـن الشـكولاتة التـي رسـمت بقعـا عشـوائية عـلى تنـورتي وعـلى كـفّ يـدي.

وأكملنـا الطريـق إلى بيتنـا القرميـدي وكان حديثـه مختلفـا

حيث حدثني عن أهوال القيامة وعظائمها.

لم أشعر بطول المسافة من شدة دهشتي لما أخبرني به عن يوم القيامة حتى وجدتني أقف أمام باب البيت، دخلت مسرعة وكأنني أحاول أن أهرب من شيء مخيف فارتميت على حضن أمي وأنا أشم عطرها الفرنسي الذي ترشه يوميا على ملابسها كانت أحضرته لها شقيقتي منذ أشهر.

حضّرت لي أمي الماء الساخن والصابون لكي استحمّ أحضرت آنية كبيرة وأفرغت فيها الماء الساخن والبارد وقطرات ماء جافيل ثم أمرتني بالجلوس وسطها، وبدأت بسكب الماء وغسل شعري بالصابون الذي حضرته بمستخلصات طبيعية كزيت الزيتون.

بعدها لفت المنشفة على جسدي النحيل وكأنّه عصا خيزران وحملتني بين أحضانها وهي تهمس في أذني:

- ما أطيب رائحتك الآن؟ قد أزيلت رائحة الحطب ورائحة العرق و ...

انتبهت لي فوجدتني استسلمت للنوم، وكأن النعاس يسابق الريح لينال من جسدي.

حملتني إلى غرفتي ووضعتني على فرش مصنوع من جلد كبش العيد الذي أضافت إليه الحليب والملح وغسلته جيدا في مجرى الواد، ودقته على باب بيتنا الخشبي بالمسامير بعد أن شدته جيدا ومشطته فأصبح ناعما مغرٍ...و غطتني « بالحنبل» الذي نسجته أناملها «بالسداية».

بـين أحضـان الأصالـة نمـت كالقتيلـة بعـد ليلـة رائعـة ورحلـة مـن حضـن أبي نحـو حضـن أمـي.

أغلال الذاكرة

كانت شمس الصباح تتسلل خلف دفتّي نافذة غرفة أبي، وتنثر ذرّات الغبار وهي ترسم مسارات متشابكة على السجاد الأحمر، ملأ دفء الحنين جنبات الروح وانتابني فراغ مضجر بغيض، ها هي أصداء الذكرى تحوم في جوف الغرفة ونظراتي تطوف بأنحائها، هنا على الكرسي الهزاز معطفه الصوفي وقبعته الروسية البنية وعصاه التي كان يتكأ عليها في أيامه الأخيرة، وقارورة عطره المفضلة Rêve d›Or مرمية على سريره وهناك فوق الطاولة ما تبقّى من كيس الشاي الأحمر وقارورة الماء الزهري وكيس الفلفل الأسود وبعض أعراف النعناع جفت واسودت ومنديل منمّق ومرتّب بعناية فائقة وقدح فارغ بجانبه قدح ثان من الماء. جالت مخيلتي وكانت تتوقف عند أي شيء يخص أبي، نزلت دموعي حبوا على الوجنتين لأني تذكرت عاداته، كان مدمنا على شرب الشاي الأحمر بالماء الزهري والفلفل الأسود والنعناع. أبصرت في انزعاج أوراق شجرة التين وهي تتحرك طيلة الوقت فباحتكاكها ببعضها البعض أصدرت ترنيما مسئماً، ورأيت صفوفا من الكتب والصحف رتبت بعناية

في خزانة قصيرة قديمة كانت لجدي نحتت أبوابها بأناملـه أما مصباحه الجيبي كان قابعا بالدرج المتآكل، مرّ الوقت سريعا، وأنا قابعة في غياهب ذكراه مطأطأة رأسي وأرفعه بين الفينة والأخرى، تأملت غروب الشمس في شرود تام وحيرة فريدة مقطبة الجبين، كنت أرجو عودة من لم ولن يعود، هو حلم سام لم تنطفئ شعلته منذ رحيل الغالي، كلما تذكرته أزهر في مخيلتي.

انصرفت إلى الشارع واستوقفت سائق سيارة أجرة وانطلقت صوب الإقامة الجامعية قبل أن تغلق أبوابها، وما إن وصلت حتى وجدت الحارس يثب أمام المدخل ومنعني من الدخول لأن القانون الداخلي يمنع منعا باتا دخول أي طالب مقيم أو طالبة مقيمة بالدخول خارج الأوقات القانونية، حينها حدّثت نفسي بعقل عاجز متحيّر قائلة: لو انتبهت قليلا للوقت لما وصلت متأخرة، فأين سأتجه وإن سمع زوجي كيف يكون موقفه وأنا لم أفعلها من قبل؟ ما كان يجب أن أعود إلى الإقامة وأنا أدري أن الوقت الذي يستغرقه السائق من بلدية «عين سينور» إلى عنابة ساعتين، لَما كان عليّ مغادرة سوق أهراس...يا الله؟ نكّست رأسي وجلاً و إحباطا، و ذرفت دموعا مكبوتة،وأنا أتخيل ما ينتظرني من توبيخ وأنماط العقاب المختلفة التي سيكون لي منها نصيب الأسد، فزوجي لا يراني الفتاة الأمازيغية الناضجة بل الفتاة العشرينية الشقراء متوسطة القامة ممتلئة الجسم، طويلة الشعر على قدر يسير من الجمال.

أفقت فجأة من كدري واكتئابي ووثبت قائلة:

– سيدي عدْ بي من حيث أتيت..

ففتح باب سيارته وقال:

– تفضلي يا آنسة.

فأجبته بإيماء هادئ:

– متزوجة وأم لثلاثة أطفال وأكبرهما تدرس سنة أولى ابتدائي، فأنا تزوجت في سنّ مبكرة خمسة عشر سنة.

انطلق السائق وكان الوقت حوالي الثامنة والنصف ليلا، كنت أنظر بريبة من نافذة السيارة، وأنا أضغط على حافتها بيدي، بينما المطر يسقط زخات زخات، كانت نظراتي شاردة للقمر الذي ينحت سواده مختبئا وراء السحب المرصوصة باعتناء، لم أتمكن من دخول الإقامة الجامعية إلا أنني عدت إلى بيت أهل زوجي والحزن يعتريني، أغلقت النافذة واعتدلت في جلوسي على المقعد في وهن ليستأنف السائق طريق العودة وأنا أغرق في شرود تام بين الفينة و الأخرى.

وصلت إلى البيت فتحت بابه الحديدي ودخلت ساحته المليئة بالدالية الصفراء، التي كانت ترسل لمعة تحت ضوء الفناء الضيق. سرت و أنا عاقدة ذراعيّ وكأني لا أخشى ظلمات الليل، وأنا من ترحل روحها لبارئها لو اعترض طريقها فأر.

كانت عيناي تفتشان عن حضنه في هذا المساء البارد الحزين، لكن كنت أعلم تواجده بالمدرسة التطبيقية لأسلحة

القتـال بمدينـة باتنـة. دخلـت غرفتـي في صمـت تـام، نزعـت ثيـابي و لبسـت المنامـة وعانقـت البطانيـة الحمـراء واستسـلمت للنـوم خاويـة البطـن، فأنـا لم أرغـب بإزعـاج أهلـه في البيـت بعد أن خلـدوا إلى النـوم باكـرا كعادتهـم ينامـون بعـد آذان العشـاء مبـاشرة، ومـا إن أطبقـت جفنـيّ حتـى أحسسـت بذراعـين يرفعـاني ويحضنـاني بقـوة، كادت أضلعـي أن تتكـسر، رفعـت بـصري فلـم أصـدق مـا رأيتـه، جـاء الـذي لم أتوقـع قدومـه رغـم ترقبـي، ولهفتـي واشـتياقي، أخـبرني أنـه أراد مفاجـأتي ليلـة عيـد ميـلادي، يـا الله أنـا لم أنتبـه ولم أتذكـر أنـه الخامـس والعشريـن مـن شـهر نوفمـبر. تذكـرت قـول الله تعـالى في كتابـه الكريـم « ...و عسـى أن تكرهـوا شـيئا وهـو خـيراً لكـم ...».

قبّلنـي عـلى الجبـين وطلـب منـي أن أحـضر حقيبـة السّـفر، لأنّـه حجـز في فنـدق «ريـم الجميـل» بمدينـة عنابـة... ابتسـمت و قلـت:

– ما المناسبة؟

قال لي:

– منـذ الصبـاح وأنـا أحـضّر للاحتفـال بعيـد ميـلادك الواحـد والعشريـن، اتفقـت مـع صاحـب الفنـدق وكل شيء جاهـز في انتظارنـا ...

قاطعته:

– لِم لم تخـبرني بمجيئـك تخيـل لـو أننـي اليـوم بـتُ في الإقامـة الجامعية...كيـف لي أن ألقـاك؟

حرّك رأسه ضاحكا وهو يقول:

- يـا صغـيرتي، هـل نسـيت أننـي زوجـك ويحـقّ لي أن أخرجـك متـى شـئتُ؟ كـما أننـي اتصلـت بـإدارة الإقامـة وأخـبروني كل شيء، وكنـت أنتظـر عودتـك لهـذا لم أرغـب في إجهـاض المفاجـأة كـما أعلـم بذهابـك إلى بيتكـم العتيـق.

جهّـزت الحقيبـة وتزيّنـت وانطلقـت وزوجـي لفنـدق «ريـم الجميـل» لإقامـة حفـل عيـد ميـلادي، كانـت يـداي عـلى كتفـه طـول الطريـق وكنـت أتأمـل النجـوم التـي بـدت كثـيرة عـلى غـير عادتهـا في سـماء غبشـاء داكنـة، وكأنهـا متراصـة خائفـة مـن ديجـور سـمائها المهيبـة، أمـا الهـلال فقـد أصابـه النعـاس وكأنـه يشـتكي الوحشـة والغربـة وسـط جُمـوع النجـوم، ويبكـي وحدتـه، ولم أشـعر إلا وزوجـي يوقـف سـيارته وينـزل ليفتـح لي بـاب السـيارة كعادتـه.

أمسـك بيـدي وأدخلنـي قاعـة الاسـتقبال بالفنـدق ففوجئـت بجـوّ رومانـسي كأنـه ضرب مـن الخيـال حيـث كانـت أضـواء الشـموع تتراقـص بـكل الأركان والمسـاحات وأضاميـم الـورد الجـوري عـلى الطاولـة التـي بهـا اشـهى المأكـولات البحريـة التـي أحبهـا، وفرقـة موسـيقية تعـزف أرقـى الألحـان، نـزع زوجـي عـن كتفـي المعطـف وعلقـه بظهـر الكـرسي الـذي أجلـس عليـه، ومـا هـي إلا دقائـق حتـى أحـضر النـادل حلـوى عيـد الميـلاد التـي تتكـون مـن خمسـة طوابـق، زينـت بـورود حمـراء مـن عجينـة السـكر بألـذ الفواكـه وعـلى قمتهـا مكتـوب رقـم واحـد وعشريـن بالشـمع الأحمـر.

وضـع الحلـوى عـلى الطاولـة التـي هيئـت لقدومنـا، أكملنـا

العشـاء الفاخـر، و بعدهـا همـس زوجـي في جـرف أذني، (هـلا تفضّلـت لمراقصتـي - (طبعـا و دون تفكـير و تـردد) وقفـت و بـدأت مراقصتـه حتـى دقـت السـاعة معلنـة عـن منتصـف الليـل.).

جلسـنا و بـدأت الفرقـة بعـزف أغنيـة عيـد الميـلاد « Happy birthday to you Dalila سـنة حلـوة يـا جميـل ثـم شرعـوا بالعـد التنـازلي.. تسـعة.. ثمانيـة.. سـبعة ..سـتة .. خمسـة.. أربعـة.. ثلاثـة.. اثنـان.. واحـد... ومـا إن سـمعت رقـم واحـد حتـى هممـت بإطفـاء الشـموع بنفـس واحـد، ثـم بـدأت بتقطيـع الحلـوى مـن الأعـلى بالسـكين التـي كانـت بيـدي وكان زوجـي يمسـك خـاصرتي بيـده اليمنـي ويضـع اليسرى عـلى يـدي التـي أمسـك بهـا السـكين.

بعدمـا قطعـت الحلـوى، أخـذ مـن الكريمـة القليـل ووضعها عـلى جبينـي. بعدهـا عانقنـي وسـلمني هديـة كانـت مغلفـة بـورق الزينـة، قمـت بفتحهـا والفضـول يتملّكنـي فتفاجـأت بوجـود خاتـم وعقـد وأسـاور مـن الذهـب و دبـدوب أبيـض صغـير، فرحـت كثـيرا بهديتـه وبعدهـا تأبطـت ذراعـه وصعدنـا بالمصعـد الكهربائـي للجنـاح الـذي حجـزه للمبيـت.

دخلنـا الغرفـة، قمنـا بالاسـتحمام مـع بعـض ولبسـت قميص النـوم لأسـتلقي بعـد شـوق أيـام معـدودات عـلى عضـده مسـتغيثة بحنانـه الـذي أراه مفـرا مـن مشـقة أعبـاء الحيـاة التـي تواجهنـي بعيـدا عنـه .

كنـت أراقـب حركاتـه وهـو عـلى الفـراش، مـرت سـاعات

الليل البهيم وهي تراقص حبات البرد تارة وحرارة الموقد تارة أخرى، حتى انبلج الصباح يخالطه صدح الطيور في حديقة الفندق.

استيقظت بعينين ناعستين محاولة التملص من حزنه فلم أستطع لأنه كان يحضنني بإحكام وكأنني سأهرب بعيدا عنه، قبّلته بحماسة متأججة وأخذت يديه إلى وسادتي.

اتصلت بخدمة الغرف وطلبت إحضار فطور الصباح، فأنا بالكاد أقف من جهاد ليلة كاملة وساعات طويلة دون كر ولا فر.

أتت الخادمة ونظفت الغرفة، ثم سألتني في استحياء:

– آنستي هل تودّين منّي خدمة أخرى؟

أشرت لها بيدي:

– ....لا... شكراً لك...

احتارت الخادمة وترددت قدماها في الذهاب وهي تنظر إلى زوجي النائم كالقتيل عاري الصدر، فقد أثارتها عضلاته المفتولة وهي تردد:

– لا شيء...لاشيء!؟

قاطعتها وأنا ارتعش من الغيرة بنبرة حادة:

– قلت لك شكراً...لا شيء.

فأجابتني الخادمة في يأس:

– أجل.

غادرت الخادمة وبعدما أغلقت الباب بأحكام، نهضت وفتحت ستائر النافذة وعدت لأستلقي في حضن زوجي،

وأنـا اتحـدت في قـرارة نفـسي (أشـتاق إليـك وأنـا بـين أحضانـك أيهـا الوسـيم).

أزعج نور الصباح عينيه فاستيقظ وهو يتثاءب، قال:

- صباح الفل والياسمين يا عروسة..

نظرت إليه بعقل معتل ثم أجبته:

- صبـاح دليلـة، هيـا انهـض يـا حبيبـي فأنـا جائعـة جـدا أريـد أن أتنـاول فطـوري مـن يديـك

فوثـب مسرعـا مـن سريرنـا ونظـراتي ترمقـه كـما اللبـؤة وهـي تنتظـر أسـدها، بعـد اغتسـاله عـاد وجلـس واضعـا مائـدة الفطـور بيننـا وأخـذ يطعمنـي مثلـما يطعـم العصفـور فراخـه.

دقّـت السـاعة العـاشرة صباحـاً فعـرض عـلي زوجـي الذهـاب إلى غابـة سرايـدي للتمتـع بمناظرهـا الخلابـة.

وبعدهـا الجلـوس عـلى شـاطيء «ابـو قـيراط»... قبلـت عرضـه دون تـردد محاولـة أن أغتنـم كل ثانيـة معـه فالوقـت لا يسـمح لي أن أشـبع منـه.

خرجنـا مـن الفنـدق وبدأنـا نزهتنـا بـين عنـاق الفصـول في مدينـة بونـة الجميلـة.

ومـع غـروب الشـمس وفي طريـق العـودة طلـب منـي زوجي قيـادة السـيارة مكانـه لأنـه أحـسّ بالتعـب.. تبادلنـا الأماكـن وسرعـان مـا غفـا وأنـا أسـترق النظـر إليـه وعقـلي يسـبح بـين أمـواج ذكريـات ليلـة برزخيـة تمنيـت لـو غرقنـا بهـا ولم نسـتيقظ.

***

في مدخل بلدية المشروحة أوقفت السيارة بعد دوسي على المكبح بقوة، فالتفت لي وقال:

– لماذا توقفت بعض الكيلومترات ونصل إلى بيت العائلة؟..

فقلت له وأنا انظر بترقب منظر الأفول الجميل خلف جبال المشروحة:

– لو غرب جمالي يوما وسكن الشيب رأسي، هل سيبقى مطر عشقك يسقي أراضي الروح وهضاب الجسد؟ هل نلعب دورنا كالعشاق الصغار..

تمايل مبتسماً، وانتظرت الرد لكنه لم يعلق بشيء ... عدت أكرر قولها، صمت قليلا ثم قال بنبرة حزن:

– حينها ربما أنا من يخاف أن تشيخ مشاعرك اتجاهه.. هل نسيت أن فارق السن بيننا تقريباً ربع قرن؟ هذا يعني بداية شبابك هو بداية ولوجي عالم الشيخوخة، ووقت قطافك هو وقت حصادي، علّك تفتقدين نفسك وقتها وتحسين بالغربة معي .

أشعل سيجارته البنية برغبة جامحة في تدخينها، وراح ينظر إليها في صمت . (تنهدت و لم أنطق ببنت شفة وأدرت المحرك وانطلقت بسرعة جنونية تواكب ضربات قلبي المتسارعة حتى وصلت إلى البيت مثقلة الكاهل بعلامات الاستفهام التي أخفيها في جرابي.

الطفلة العروس

أواخر شهر آب بعد صيام شهر رمضان كنت في بيت جدة صديقتي «صوريا» التي عادت من وهران بعد قضائها شهر الصيام رفقة عائلتها، سمعتُ طرق الباب الرئيسي ويصاحبه نداء شقيقي «لزهر»:

- « دليلة تحتاجك أمي ضروري جدا...عندنا ضيوف حضروا من «بلدية حمام النبائل» ولاية قالمة..

خرجت مسرعة وأمسكته من أذنيه قائلة:

- شيعتينا في الكرتي حتى الخضارة سمعوك..

تملص «لزهر» من يدي راكضا نحو أمي و هو يصرخ:

- يما..يما..امتشكوث ولتما دليلة هجن..

هذه كانت كلماته بالأمازغية تعني (أمي...أمي الطفلة أختي دليلة جنت)..استوقفه خالي عبد الرحمن:

- كفّ عن الصراخ سيسمعك الضيوف

وأعطاه خمسين سنتيما طالبا منه الذهاب وشراء الحلوى قائلا:

- رجعلي الصرف...

وبقي يكرر في الجملة (رجعلي ثمانية دورو اني محرّق والشهرية

خلصت) التفت إليه أخي وهو يضحك ويردد :

– حاضر يا خالو على بالي المعلمين الكل بخلاء ههههه ..

عاد خالي إلى البيت وهو يتوعّده بأنه سيخبر «محمد الصالح» بذلك، لكنه تذكر أنه المدلل عنده ويحبّه و ما ضربه يوما وما عاقبه.

دخلت بيت الضيوف وبعدها إلى الغرفة المنعزلة بساحة البيت فوجدت أختي «هادية» الكبرى تزيّنت بالحلي والملحفة الشاوية ووضعت أحمر الشفاه واكتحلت.. استغربت فهي معروفة بأنّها عادية جدا لا تحب البهرجة ولا الماكياج بقيت مذهولة والتساؤل ينهشني، أخذني الفضول صوب أمي «مليكة» كي تخبرني سرّ هذه الزينة، لمحت نوعا من الفرح يطلّ من عينيها بلمعة متألقة فاضحة لغبار السرور الذي ملأهما، و التفتّ إلى أبي فوجدته يلبس البدلة و فوقها العباءة البنية وعلى شفتيه الرفيعتين ابتسامة محتشمة ترحب بالضيوف، بينما صورة الرئيس «هواري بومدين» على الجدار واقفا في إطاره الداكن ونظراته مغلفة بقوة، رميت بنظراتي نحو المصابيح الزيتية لتي كانت تملأ المكان بضوئها الخافت وللجدران التي زينت بالسجادات المزركشة بالرسومات المختلفة، أمسكت أمي بيدي وهمست في أذني:

– أظن أنّ أختك تأخرت..

فقلت لها بصوت خافت:

– واش يخرج العروس من بيت أبيها..

هرولت إلى «هادية» في الغرفة المعزولة وأخبرتها أنّ أمي تأمرها بالحضور. كانت أختي «هادية» مرتبكة و زائغة العينين تطلّ على المرآة في كل لحظة، وهي تفحص الملحفة الشاوية الجديدة وزينتها:

– ما رأيك؟

ابتسمتُ لها:

– لا يهم رأيي بل المهم رأيه ...

غضبت مني وراحت تقول:

– أنا لا أعرفه أصلا و لم ألتقه و لم أره في حياتي .. ثم أيتها الماكرة..صفيه لي...هل هو أشقر، أسمر، طويل، قصير... نحيف بدين...و...؟

استرسلت في الأسئلة، يا أختي دقيقة وستكونين أمامه وترينه عن قرب وتفحّصيه، أنت تعلمين أنني خجولة ولا يمكنني أن أنظر إليه كثيرا خاصة أثناء تواجد أبي.

سارت أختي عبر الرّواق الضيّق الواصل بين ساحة البيت وغرفة الضيوف كأنها تعبر برزخا لميلاد جديد. مطأطأة الرأس باسمة الوجه محمرة الوجنتين، وشعرها الأشقر ينسدل كأشعة الشمس وراءها، وقفت على السجاد الأحمر المزركش بالزخرفات والتعاريج، تحمل «هادية» الصينية وفوقها العصير في أكواب مزينة الزجاج، وكذلك فناجين القهوة المزركشة..تقدمت من خالة العريس التي رافقته مكان أمه متوفية.. وناولتها الكوب الأقرب إليها.. وانتقلت بعدها لوالده ثم استدارت للعريس وتلاقت

النظـرات الخاطفـة، اهتـزت الصينيـة بـين يديهـا بعـد رعشـة نابعـة مـن القلـب، بعدهـا جلسـت بجانـب أمـي دخلـت شـقيقتي « «سـهام» تجـري، بابـا بابـا الطالـب جـاء ليتـم مراسـم الفاتحـة، وقـف والـدي ووقـف معـه أخـوالي وزوج أختـي نفيسـة «عبـد الحميـد» والعريـس ووالـده وأعمامـه وجـده وخالـه الوحيـد، متجهـين إلى بيـت شـقيقتي التـي كانـت تسـكن بجانبنـا ب «عـين شـفرلية» بينـما جلسـت النسـوة تنتظـرن بترقـب وفضـول كبيريـن مـا ستسـفر عنـه هاتـه الخطبـة، دخـل أخـي لزهـر:

– زغردي يا يما راهم قراو الفاتحة..

تألقتـا عينـا أمـي واطلقـت ثلاثـة زغـرودات خرجـت تعـبر عـن انفجـار بـركان مـن السـعادة...وتلتها زغاريـد أهـل العريـس وهـن يتعمـدن إطالتهـا لتمـد خالـة العريـس يدهـا وترفعهـا وتضـع خمسـين دينـار في حمالـة الصـدر تحـت الملحفـة وهـي تقـول:

– خمسين دينار شرطها..

وتسـلم أمـي عـشرون دينـار حـق الزغـرودة، لم أفهـم شـيئا ولم أحـاول أن أفهـم ولا أريـد أن أفهـم...لأني أصـلا لسـت مقتنعـة فأنـا أرى شـقيقتي «هاديـة» مازالـت طفلـة وهـي ابنـة الاثنتـي عـشر سـنة سرّحـت مـن المدرسـة الأساسـية وقتهـا «ابـن خلـدون» و بعدهـا بشـهر عقـدت قـران الفاتحـة عـلى غريـب لا تعرفـه.

حدّقـت إلى النوافـذ التـي تعمّـدت أمـي تركهـا مفتوحـة

حتـى يسـمع الجـيران وتـأتي وفودهـم للتهنئـة والتبريـكات، فجـأة صرخـت أمـي في وجهـي:

– وشـبيك سـاهية ويـن بابـيرك غرقـو...ازربي فيسـع اوقفي قـدام البـاب الجـيران تـوا عودهم جـاو..

وقفـت متسـمرة أمـام البـاب الرئيـسي وأغصـان الداليـة تقبـل خـدي بعناقيـد العنـب المسـكي، وفـدت الجـارات وهـن ترقصـن أمـام البـاب و كأنهـن سـبايا حـرب ههـه... ويسـلمن عـلى العـروس ثمانيـة قبـلات وبقـوة. أحسسـت بخديهـا تورمـا مـن كثـر التقبيـل.

قـدم العريـس والضجـة ثائـرة حولـه ليلبس شـقيقتي «هادية» خاتـم مـن الذهـب الأبيـض، وأتـى المصـوّر قـويّ البنيـة شـاربه يبـدو مـن خلـف الكاميـرا مبروما عـلى جانبـي وجهـه، التقـط بعـض الصـور لأختـي مـع العريـس وهمـا محاطـان بجمـع غفـير مـن الجـيران وأهـل العريسـان .

تقدمـت شـقيقتي الكـبرى «نفيسـة» وحـضّرت الحنـاء وحنّـت لهـا كفّيهـا وغطّتهـما بقفازيـن مـن الدانتيـل الأبيـض وسـط التصفيقـات والزغاريـد مـع الزّفـة بينـما أمـي هنـاك في الرّكـن تتابـع مـا يحـدث بحـرص خشـية مـا تؤمـن بـه وتخشـاه «السّـحر».

اقتربت من عريس «هادية» و سألته:

– أيها الأشقر الوسيم ما اسمك؟

ابتسم قائلا:

– عبد الحق..

وعيناه تتابع عيني «هادية»، تنهدت بعمق وألقيت جسدي على مقعد قريب مستندة على كتف أمي، طلبت منها أن تتصور مع العريسين، فتقدمت وعينيها مغرورقتين بالدمع... لم أفهم إن كانت سعيدة أم حزينة؟.

أدار المصوّر الكاميرا إليها فبزغت ابتسامتها الجميلة التي أنارت وجهها، تأملت بسمتها بشغف وحدّثت نفسي قائلة:

- هل الشجون جعلت أمي تبتسم؟ .

المعلم عمر سرّ النجاح

اسمه «سي عمر» هكذا يناديه زملاء العمل في ابتدائية رقاينية محمد الكامل بسوق أهراس.

في قسمي كل من يدرس مجتهد وناجح لا يرسب عنده تلميذ.

سألتني يوما أمي لماذا لا راسب ولا راسبة في قسمك؟ هو الأستاذ طويل القامة، عريض الكتفين، أسود الشعر واسع العينين، الأستاذ الفنان الشاعر الحنون الغض...نهابه و نحبه، ترتعد فرائسنا إذا غضب من أحدنا بسبب عدم إنجاز واجب منزلي أو عدم حفظه للدرس السابق، ونسعد عندما ننجز واجبنا لأنه سينثر علينا زخات عطره و يهدينا حلوى الكابريس ويربّت على كتفينا ويطلب من الآخرين التصفيق للمجتهد.

كالعسكر في الثكنة نخضع لنظامه انتبه، أصمت، أفهم، اسأل،احفظ، حضّر درسك. يجيء إلى القسم وجيوبه ممتلئة بالحلوى وقارورة العطر الأزرق لا تفارقه.

أذكر يا أمي في إحدى الأصبوحات طلب مني قراءة إليادة الجزائر وبعد انتهائي صفق لي هو شخصيا وقال لي أتنبأ أنك ستكونين شاعرة كبيرة يوما ما، ابتسمت أمي

وقالت لي هنيئا لكم بأستاذ من طينته المباركة. كانت قطع الطبشور تنخر أناملـه وهو يكتب على السبورة وصوته يجلجل طالبا منا الانتباه واعدا أنه حتى لو لم يكف الوقت سيكمل الدرس في المرة القادمة، كنت أنظر إليه بمفخرة وقداسة فأنا أراه وريث الأنبياء هو يتعب ويضحي ويفينا حقنا وأكثر بمهنة اختارها مهنة التدريس الابتدائي إنها كالموت البطيء تسلب الأعصاب وتتعب القلب وتحرق الدم، كان يبدو سعيدا وهو ينظر إلينا ونحن منهمكين في الكتابة على أوراق ناصعة البياض يراها غضة الأحلام فهي السبيل لمصير ربما أينع فرحا، كانت عيناه الجميلتان تلوح بنظرات مودة تجاه تلامذته، دائما ما يخاطبنا أبنائي وبناتي أخشى عليكم ردهات الشارع الليلي الغول الذي يلتهم أطفالنا لذلك عليكم بالمثابرة لأجل النجاح.

في حصة دراسة الوسط يدرسنا الحصص تطبيقية ويخرجنا خرجات ميدانية لنزرع ويجعلنا نشاهد كل مراحل تطور البذرة لذلك أنا لازلت أتذكر كل الدروس التي درّسنا إياها وفي جميع المواد.

هو أستاذ استثنائي طريقة تعليمه مختلفة ينحت المعلومات نحتا في عقولنا، لا يضيع برهة دون الإلحاح في سؤاله إن فهمنا أو لا، كان يمر علينا فردا فردا رغم أن القسم مكتظ فعدد التلاميذ لقسمي تعدى الخمسة و الأربعين .

يعمل أستاذي «عمر قياسة» جاهدا لزرع المحبة بيننا ويهطل بالهدايا على المتفوقين العشرة لتشجيع الآخرين وخلق الغيرة

الإيجابيــة بيننا.

كلــما حــان وقــت توزيــع المعــدلات قلبــي ينبــض بسرعــة وتتحجــر الدمــوع في الأحــداق وتعجــز قدمــاي عــن حمــلي لأنهــا اللحظــة الحاســمة «لعضايميــة عفــاف» المعــدل تســعة فاصــل خمســة وعشرين.جيــد .(لم يكمــل الــكلام حتــى بــدأت في البــكاء وطأطــأت رأسي وأحسســت بــدوار فاقــترب منــي الأســتاذ عمــر وأمســك بيــديّ اللتــان كانتــا ترتجفــان وهمــس في أذني:

– دعيني أكمل وبعدها ابكي كما تشائين..

مســح دموعــي وأخــذ بيــدي لأرافقــه وأجلســني عــلى كــرسي مكتبــه وبقــي هــو واقفــا عــلى المصطبــة يملــئ المعــدلات والأســماء «قوادريــة صورايــا» تســعة احســنت، ثــم نطــق اســمي وهــو ينظــر لي مبتســما:

– ذيــب دليلــة تســعة فاصــل خمســة وســبعين ممتــازة الأولى في القســم.. بعدهــا عفــاف الثانيــة وصورايــة الثالثة..

وأكمــل ينــادي حتــى أتــمّ القائمــة والغريــب أن المعــدلات كلهــا أكثــر مــن ســتة. تنفســت الصعــداء لتحصــلي عــلى المرتبــة الأولى وعــدت إلى مــكاني بعــد أن أهــداني لــوح شــوكلاتة مُنــى وقلــم أزرق بــه مصبــاح ضوئــي يشــتعل و ينطفــئ، وســلّم عــليّ قائــلا:

– أردت أن أفاجأك أتراني أبكيتك.؟

تأهبنــا للخــروج لكنّــه اســتوقفني خــرج كل التلاميــذ وبقيــت أنــا فقــط رفقتــه وقــال لي:

– لمــاذا تغيبــت أســبوعا كامــلا قبــل الامتحانــات وفاجأتنــي عندمــا وجدتــك كاتبــة دروســك وحافظــة لهــا،

طأطأت رأسي وقلت له:

- يا أستاذي لي ظروف عائلية تغيبت فأمي ذهبت إلى بيت جدي بالحدادة هي قرية حدودية مع تونس، بعد أن تشاجرت مع أبي وتركتنا وحدنا ولي أخت عمرها سنة لم أستطع تركها وحدها فاعتنيت بها حتى عادت أمي إلى البيت.

تنهّد «عمر» ورسم ابتسامة على ثغره الجميل قائلا فخور بك بنيتي وكأنك من صلبي، تركت يده وانطلقت كالسهم أقفز في سعادة، كنت فرحة جدا فأنا أحب أستاذي «عمر قياسة» وهو الأحب لقلبي من أي رجل. أذكر في أحد الأيام أنه طلب منا أن نكتب في ورقة أمنية. كتبت له أنني أتمنى أن أنجح وأصبح فنانة تشكيلية مثله أتقن الرسم وأشتغل صحافية كي أجوب العلم لألتقي من يشبهك وأتزوجه ألم يقال يخلق من الشبه أربعين؟. أنا واثقة أنني سأجد من يشبهك، أحبك أستاذي بحجم السماء والأرض وكتبت أسفل الورقة اسمي الكامل بعدما تعمدت أن أسلمها إياه هي الأخيرة حتى يقرأها.

آخر الرسائل، قرأ الرسائل ولما وصل إلى رسالتي قرأها فندى جبينه واحمّرت وجنتيه وكان يقرأ ونظراته لا تفارقني.

مرّت أيّام كان كلّ يوم يقرأ لنا رسالة تلميذ أو تلميذة لكن الغريب لم يقرأ رسالتي.... بدأت أتساءل هل مزقها... لا يمكن أحرقها.. قد يكون غاضبا مني؟ لأنه لم يحدثني منذ وقت كتابتي للرسالة؟ وذات مساء كانت حفلة نهاية

السنة وبعد نجاحي بشهادة الابتدائية وبتفوق كرمنا المدير وما إن تأهبت للعودة سمعت صوتا حنونا يناديني:

- دلولة..

فالتفت كعقارب الساعة:

- نعم أستاذ أظنه آخر يوم أراك فيه ؟ ألا تراه مؤلما وأنت الأقرب لقلبي؟

أجابني مبتسما:

- بنيتي أنت بمثابة ابنتي سعدت برسالتك لكن؟ أنت ترينني ملاكا فأنا لست ملاكا ولا شيطانا... أنا بمرتبة وسطى بينهما. سعيد بحبك الجارف لي وأتمنى أن لا ينقطع الود بيننا...أنت ستدرسين بالمدرسة الأساسية قويسم عبد الحق. جانب بيتي العائلي إن احتجت إلى شيء يمكنك أن تمرين بالبيت فلي زوجة رائعة وحنونة وستعاملك كابنة لها وليكن في علمك أنني لم أقرأ رسالتك يومها لأني خشيت أن تفهم بالخطأ وأعلم أنك كتبتها ببراءة، وفقك الله دلولة.

عدت إلى البيت وأنا أسابق الريح سعادة وطلبت في قرارة نفسي أن يحفظ أستاذي الفاضل «عمر قياسة» ويطيل عمره وأن ألتقيه ولو بعد حين.

مرت الأعوام تركض بسرعة وتزوجت في سن مبكرة وأكملت دراستي واشتغلت وطبعت لي دواوين شعر ومجموعات قصصية وفي أحد الأيام كنت بإحدى شوارع سوق اهراس ابتاع بعض الملابس لطفلي لمحت أستاذي وهو على متن السيارة فأحسست وكأنني عدت بكبسولة

الزمـن إلى عشريـن عامـا فأنـا لم أره، سـألني عـن حـالي فأخبرتـه أننـي تحصلـت عـلى الماجسـتير وأن نبوءتـه صدقـت وأصبحـت شـاعرة وسـألته عـن أحوالـه وعـن بناتـه وابنـه الأصغـر فابتسـم وقـال لي أصبحـا طفلـين، هـو تقريبـا بعمـر ابنـك سـبع سـنوات، فابتسـمت وقلـت مبـارك لـك بابـن ثـاني ولابراهيـم بـأخ، حفظـه الله ورعـاه.

افترقنـا ثانيـة وبعدهـا بسـبع سـنوات علمـت صدفـة إصابتـه بالسّرطـان ورأيتـه مـن بعيـد دون أن ينتبـه لي فأنـا أعلـم أنـه عزيز النفـس ولا يحـب مـن يـراه عـلى تلـك الحالـة.

بكيـت كثـيراً فكـرت في زيارتـه لكـن لم أعلـم كيـف و متـى؟ وأنـا لا أعلـم ظـروف بيتـه أو ظروفـه، بقيـت عـلى اتصـال بصديـق وجـار لـه أسـأل عنـه كل مـرة وأدعـو لـه بالشـفاء العاجـل إن شـاء الله هـو صاحـب الفضـل لمـا وصلـت إليـه .

لقيطة في قبضة اللعنة

كل ليلة تداعب وجهها بمساحيق التجميل وتضع الرموش المستعارة، والشعر الأشقر الذهبي المستعارة، لتجذب الزبائن إليها، تمنحهم المُتعة مقابل فوائد فهي لا تجد حرجًا في ذلك .

«فُتون» ثمرة لعلاقة محرمة تصبغها صفة «غير شرعية»، تخلت عنها أمها أمام باب المستشفى الجامعي بعنابة، لتودع دار الرعاية الاجتماعية بسبب فقدانها الرعاية الوالدية.

عند بلوغها سن الرشد غادرت مركز الرعاية لتحضنها الشوارع الحبلى بالذئاب البشرية، يبتاعها السكارى وأصحاب السيارات الفخمة من سوق اللحم الرخيس.

مضت الشهور وهي تتخبط في بيت العنكبوت، وفي ليلة من ليالي الشتاء شعرت بدوار و غثيان، وآلام أسفل البطن.

قررت «فتون» زيارة طبيب الأمراض الباطنية لكن هذا الأخير طلب منها إجراء التحاليل بعد أن تبين أنها لا تعاني من أي مرض .

اتجهت لمخبر إجراء التحاليل وعادت ثانية للطبيب ليطلعها بنتائج التحاليل.

نظر لها الطبيب مبتسماً:

– الحمد لله التحاليل جيدة و مبارك لك ؟ ماذا ستسمّينه إن كان ولدًا؟

لاحظ صمتها الطويل فقال:

– وماذا إن كانت بنتاً ؟ أجزم أنّها ستكون جميلة جداً مثل أمها .

خافت «فتون» كثيراً وتسارعت نبضات قلبها الصغير. وغادرت عيادة الطبيب وهي تجرّ مركبة من التساؤلات .

وتتحدث في قرارة نفسها:

– كيف لم أنتبه انّني لم أتبلل بالقطرات الحمراء، ولمن أنسب الذي أحمله في أحشائي ؟

أ لآخر الرجال في فراشي، أم لأولهم أم أوسطهم أو ...ل....

هل أذهب لبائع المخدرات؟

لا...أكيد سيبرحني ضرباً وربما علّم على وجهي بسكينه التي تُلازمه حتى أثناء نومه.

أم للفنان المشهور مغني الراب...لا هو متزوج من ابنة ثريّ معروف.

وأخيراً قررت «فتون» الذهاب إلى البرلماني فهو آخر زبائنها، علها تثير شفقته ولكن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن ؟!

أنكر البرلماني نسب من في أحشائها بانكاره أي علاقة جنسية بينهما ولطمها أمام بيته الذي اشتراه خفية عن زوجاته الأربعة لممارسة عربداته واستدراج ضحاياه من

الجنسين لانه كان يعاني من الشذوذ بسبب إدمانه على مشاهدة الأفلام الاباحية .

بكتْ كثيراً أمامه، فوقف واقترب منها وأمسك بيدها، واضعاً بها مبلغاً يُقارب في عدده فوائد ثلاث شهور مُجتمعة، بصقت على وجهه وشتمته قبل أن يطرق الباب في وجهها.

وقبل أيام من ولادتها لطفل المُتعة، قررت أن تذهب للفنان للظفر ببعض المال لأنها كانت متيقنة من إنكاره للطفل وكان لها ما أرادت.

حارتْ على عتبة أيام الانتظار

كُنتُ على ثقة أنَّ ظنّي بك لن يخيب، وهممت في عدِّ النقود فَرِحة، وراودها شعور النزوة من جديد وبدأت في الصراخ:

- أنا أستحق المجد .

فأنا آلهة الجمال ووجب على الجميع تقديسي، فالرجُل الحق لا كلمة له في حضور الأنوثة .

وضعت وليدها بعد أن أجريت لها عملية قيصرية بمستشفى خاص ورفضت أن تضعه في مَبَرّة للأيتام.

شعرت بسعادة جارفة عندما أمسك الرضيع بشعرها، وبفرح عندما أخرجت له ثديها...سرعان ما أمسك حلمته لتدرّ الحليب في ثغره.

بعد شهر ذهبت لعيادة الطبيب الذي أجرى لها العملية القيصرية فكتب لها وصفة و خاطبها مبتسماً:

- إيّاكِ ونسيان حبوب جفاف الأرحام.

أكثرُ جملة ترددت إلى مسامعها من الطبيب .

***

أصبح ابنها يدرس في الثانويّة، كان متفوقاً، وبعد تحصله على شهادة البكالوريا، سافر إلى فرنسا لدراسة الطب، وأصبحتْ حينها حرّة طليقة كما هي قبل ولادته، فهي في عقدها الخامس، ولم تفقد بريق جمالها، بل زادت إثارة.

يوم سفر ابنها لم تخرج من شقّتها، وانتظرتْ حتّى الغروب قدوم زبون من الذوات طالب للمتعة، قُرع الجرس ففتحتْ الباب، كان شاباً من عمر ابنها يحمل لها هدية، رافقته لحجرة نومها وبعد قضاء المتعة أخبرني أنه يشعر بضيق صدر، بسرعة اتصلت بالطبيب، بدأ بتفحّصه وطلب على جناح السرعة سيارة إسعاف مجهزة بأحدث التقنيات، رافقته كانت جبهته تتصبب عرقًا، وحرارته مرتفعه جدا، وفجأة استقام الخط، وتعالت صرخات امرأة عجوز:

– ابني فلذة كبدي ؟

حفل زفافك بعد يوم؟

أتزّفُ للقبر يا ولدي؟

أتلبس الكفن وأنا من قلت لها يوماً:

– اختاري لي أنت يا أمي بدلة العرس؟

بعد تشريح للجَثة اتضح أنّ الشاب تناول الكثير مِن الحبوب الزرقاء «الفياغرا» والتي كانت سبباً في نهايته.

باتــت الدنيــا وكأنّهــا صنــدوق مغلــق عــلى نفســها، عزمــتْ الرحيــل عــن العفــن الــذي تجسّــد لي دومًــا بألــوان الطيــف. ورأتْ حينهــا ولدهــا يحمــل شــهادته متخرّجًــا مــن الجامعــة، ومعــه عروســه ومــن ثــمّ طفليــه .

صدقــاً الشــارع كان ملاذهــا بعــد خروجهــا مــن دار الرعايــة الاجتماعيــة.

لكن اليوم قررت أن تبحث عن جمالها المستتر

تصــلي فرضهــا وتصــوم شــهرها وتصــون فرجهــا والله غفــور رحيــم .

نهر علم ضبعه كتاب

ماذا كان يجري في الحياة لو لم يكن هناك كتابٌ؟
«رحاب» كانت تبدو نائمةً أو كالنائمةِ، عيناها نصفُ مغلقتين كأنّما أثقلَهما ماردُ النوم.
تحمل كتابًا وتقرؤُه بصوتٍ أجشّ كأن الكلماتِ تُنتزَع من حلقِها انتزاعًا، يسقطُ الكتابُ منْ يديها، لينطلقَ منه صوتٌ خفيضٌ..
– غبيةٌ؟ تقضينَ أيّتُها النوّامةُ ساعاتٌ وأنا مرميٌّ على السّيراميك .
أ لستُ أنا مَن أخرجكَ من هاويةِ العدم؟
(تتسارعُ ضرباتُ الصغيرِ الذي بين ضلوعِها)
– مَن أنتَ؟
– ألم تعرفيني؟!
أنا الذي تضعينَه إلى جانبك عند خلودك للنومِ وتنهضينَ معه كلّ صباح .
– أنتَ..أنتَ؟..
– نعم؟..أنا هو؟
أتعجزينَ عن النُطقِ باسمي أم تخجلين من...
(ترسمُ رِحابُ ابتسامةً ورديةً على شفتيها)

– نعم أيّها الأنيسُ؟
يـا رفيـقَ ظُلمتـي و وِحـدتي أنـا لا أُشـبعُ نَهـمَ روحـي إلا بطلـب العلـمِ، ولا أسـعدُ إلا بسـفرِي بـين صفحاتـكَ الشـذية .
لكنـكَ أنـتَ وحـدك المسـؤولُ عـن زجِّ المعلومـاتِ في ذاكـرتي حتـى أصابَنـي الإعيـاءُ وتمكَّـن منّـي النعـاسُ، إذن أنـتَ المتّهـمُ بتنويمـي.
(يجيبها الكتاب)
– أنـا النـورُ الـذي يُـضيءُ غـرفَ عقلِـك الحالكـةِ الظـلام وأنـا الـزّادُ الـذي يُشـبعُ ذاكرتَـك أفـكارًا تلتصـقُ التصاقًـا فيعـزفُ العلـمُ عـلى أوتـار المعرفـة .
(تَتعجَّبُ رحابُ من كلامِ الكتابِ و تحارُ)
– ما الذي تتفوَّه به
لقـد أسرَيـتَ روحَ التعاطـفِ الصامـتِ مُـذ جعلْتُـك المقيـمَ الدائـمَ والمالـكَ لرفـوفِ خزائنـي فـلا تُطِـلْ الجـدالَ حتـى لا يتملَّكُنـي الحُمـقُ وأنـتَ الصديـقُ الأقـربُ لروحـي وعقـلي وقلبـي.
فـلا تغضـبْ؟ فأنـا بحبّـي لـك وصلـتُ إلى سرٍّ مـا تحملُـه عـلى صفحاتِـك، ففصولـك كلُّهـا ربيـعٌ ومفاتيحُـك تسـيحُ الأفـكارَ المتجمـدةَ في ثنايـا ملكـةِ العقـلِ.
يجيبُ الكتابُ و هو فاغرٌ فاهُه:
– احملينـي هيّـا.. بسرعـةٍ فالرطوبـة وتعـرق السـيراميك يُتلـفُ صفحـاتي ليحكـمَ بإعدامـي.
ضعيني بجانبِك لأهمسَ في جرفِ أذنيكِ حكايا جميلةً.

تردُّه رحاب بنبرةِ عطفٍ و مودةٍ:

– تعـوَّدتُ عـلى القـراءةِ بنهـم و ألِفتُهـا وعشـقتُها رغـمَ عـصرِ الإلكترونيـاتِ فالكتـابُ الورقـي هـو إكْسـيرُ الحيـاة وحياةِ الأحيـاءِ الأحيـاءِ لا الأحيـاءِ الأمـواتِ.

(تنحنـي رحـابُ وبالـكادِ تفتـحُ عينيهـا وتتثـاءبُ هامسـةً بصوتٍ غـيرَ مفهومٍ لنفسِـها ولا تسـمعُ أحـدًا..)

وهي تبدو أنّها لا تسعى لصداقةِ أحدٍ دون الكتاب.

سيّد الرهان

هـا هـو آذان الفجـر يصـدح في أجـواء «حـي لعلاويـة» مُعلنًـا عـن ميـلاد يـوم جديـد.

يسـتيقظ أبي للذهـاب إلى مسـجد عمـر بـن الخطـاب لأداء صـلاة الفجـر، ويسـتهل يومـه بالدعـاء، و الاسـتغفار، ثـم يتوجه للمزرعـة خاصتـه ب «بورقـاص» الكائنـة بدائـرة «تـاورة». حيـث نسـمات هـواء الصبـاح المُنعشـة النديـة المُحمّلـة برائحـةِ النرجـس الـبرّي، و زهـر الأقحـوان، فـأبي اعتـاد أن يسـتمتع بتلـك الأجـواء في كل صبـاح، فهـي تبـث في روحـه السـكينة، وصفـاء الذهـن .

رغـم وضعـه المـادي الجيّـد، فهـو متقاعـد مـن الجيـش الوطنـي برتبـة «رائـد» إلا أنـه لا يسـتغنى عـن ممارسـة هوايتـه «الخياطـة و التفصيـل و التطريـز اليـدوي» والتـي أصبحـت بعـد ذلـك مهنـة يمتهنهـا في وقـت فراغـه، هـو أمهـر وأقـدم خيـاط بمدينة «طاغست» .

جلـس أبي عنـد الحـلاق ينتظـرُ دورهُ، التقـط الجريـدة اليوميـة «النـصر» التـي كانـت فـوق الطاولـة، وبـدأ يتصفحهـا، وقعـت عينـاه عـلى نتيجـة لعبـة الريـاضي، صرخ:

– يـا إلهـي ربحـت في مسـابقة الرهـان الريـاضي الجزائـري

ربحـت الملايـين .
غادر أبي الحلاق دون أن يحلق شعر رأسه ولحيته.
عاد للبيت والابتسامة ترتسم على شفاهه.
– ابـشري ربحـت في مسـابقة الرهـان الريـاضي الجزائـري، سأشـتري لـك أسـاور ذهبيـة هديـة. وسأشـتري لكـنّ هدايـا وملابـس و ... مشـيرا لنـا نحـن البنـات الأربعـة بإصبع السـبابة. الآن سـأذهب للطاهـر ابـن أختي «بغدوشـة» ليرافقنـي للعاصمة لاسـتلام المبلـغ، ثلاثـة أيـام عـلى الاكثـر و أعـود للبيـت .
غـادر أبي متجهـاً لبيـت عمتـي، و بعدهـا للعاصمة ليسـتلم الجائـزة المالية .

***

عـاد أبي للبيـت فحـضّرت لـه أمـي المـاء السـاخن و أضافـت لـه الملـح كعادتهـا، ولكـن أبي طلـب منهـا أن تلبـس الطيلسـان (الملاءة السـوداء) بسرعـة، لترافقـه لبيـت أختـي نفيسـة، ابنتـه مـن زوجتـه الأولى «رقيـة» .
وصلـت أمـي لبيـت أختـي ولم تنطـق ببنـت شـفة، ولم تسـأل أبي عـن سـبب الزيـارة، وهـي تعلـم أنّ أبي لم يزرهـا يومـاً حسـب أعراف الشـاوية.
نـادى أبي عـلى اختـي، وطلـب منهـا مرافقتـه وأمـي لبائـع المجوهـرات.
اشـترى أبي لأمـي مقيـاس «أسـاور» وخاتـم، ثـم طلـب من

أختـي أن تختـار أي قطعـة ذهبيـة تـروق لهـا، فاختـارت مقيـاس أغـلى مـن مقيـاس أمـي، دفـع أبي للبائـع المبلـغ المسـتحق.
وبعدهـا تجـول بالسـوق، واشـترى لنـا ملابـس وألعـاب وأحذيـة.

عـاد أبي للبيـت واسـتلقى عـلى السريـر، فالتعـب كان باديـاً عـلى وجهـه، حـضّرت لـه أمـي الكُسـكس بالخـضروات واللحم الـذي يُحبـه وعصـير «پانـش» وطلبـت منـي أن أقطـف عنقـود العنـب مـن الداليـة الموجـودة في وسـط سـاحة البيـت، لأنّ أبي يُحـب أن يـأكل الكُسـكس بحبـات العنـب التـي ينثرهـا فـوق الطبـق.

بـدأ المطـر يعـزف عـلى سـقف بيتنـا القرميـدي ألحانـه بحيـاء، أمرنـا أبي بالخلـود للنـوم لأنّ نـشرة الثامنـة انتهت.
وهو لا يُحب أن يتعكر نومه بأي ضجيج .

نـام الجميـع وبقيـت أنـا شـاردة الذهـن أنظـر للشـمعة التـي تنتحـب في صحـن عـزاء الشـمعدان .

ومـا هـي إلا دقائـق حتـى سـمعت شـجرة التـين التـي تعانـق سـياج النافـذة بشـغف تدنـدن بصـوت خافـت، فيرقـص السـتار الشـفاف بخجـل ليلامـس صفحـة وجهـي، فابتسـمت والتحفت البطانيـة ويـدي ترتجـف خشـية أن يُكتشـف أمر سـهري.

نمـت متأخـرة ولمـا اسـتيقظت في الصبـاح أحسسـت ببلـلٍ في سـاق رجـلي اليُمنـى، تحسسـتها فصرخت:

– يـا الله مـن أيـن جـاءت قطـرات الـدّم هـذه، و بـدأت بالبـكاء، ليـأتي أبي وبيـده صحـن بـه عصيـدة سـاخنة بالزبـدة

والسـكر .

ـ تذوقـي العصيـدة فأمـك حضّرتهـا بمناسـبة إنجـاب القطة «مينوشـة» لسـبعة قطـط، لا تخـافي ؟ فقطـرات الـدم هـذه هـي دم ولادتهـا، يبـدو أنهـا اختـارت الـولادة فـوق سـاقك و ابتسـم.

نهضـت مـن فـراشي وذهبت لسـاحة البيـت «الحُوش»وبدأت بغسـل سـاقي، وغيّرت ثيـابي لأنها كانـت ملطخـة بالدماء.

وغـيرتُ شرشـف الفـراش لأنّي وجدتـهُ في حالـةٍ يُرثـى لهـا، وكأننـي كنـت أقاتـل فوقـه .

ثـم مـددتُ جسـدي عـلى المقعـد الإسـمنتي بسـاحة البيـت ومـددت يـدي لفنجـان القهـوة الـذي تهـاوى وأنـا لا أُحـاول منعـهُ .

أحسستُ بالقهوة الساخنة و قد انْدَلَقَت على رجلي .

أمسكت أمي بيدي وهي تُردّد:

– لا بأس فقديمًا قيل «اندلاق القهوة الحلوة فأل خير»

ليلة الدّم

في عطلة الربيع، وفى والدي بوعده لي وسمح لي بالسفر رفقة خالتي التي تقطن بقرية الشيحاني دائرة «الذرعان» ولاية «الطارف»، كنت لأول مرة أركب فيها القطار، لأنّ والدي لا يسمح لنا بركوب الحافلة أو القطار أو سيارة للنقل الجماعي .

تفاجأت عند وصولنا لمنطقة صناعية وعبورنا لواد تنبعث منه روائح كريهة، حيث يوجد بيت خالتي «خميسة» وصُدمت فسألتها:

– خالتي هل هذا هو بيتك؟

فقالت لي:

– نعم هذا بيتي القصديري هو مملكتي التي أنجبت فيها ستة أطفال، وهو البيت الذي أعيش فيه سعيدة والحمد لله متّعني الله ببنية جسدية قوية وبأطفالٍ أصحاء.

وما إن طرقت خالتي الصفيحة، أو بالأحرى الباب حتى سمعنا أصوات الرصاص العالية الترددكادت تُمزق طبلة أذني و انفجارات بذلك المكان تثير الرعب وصراخ يشتد، تملّكني الفضول ورفعت رأسي لأسترق النظر للناحية

الأخـرى حيـث الأشـجار الكثيفـة، فشـاهدت بعـض الجنـود يكـبّرون (الله أكـبر) ونسـاء تثـور باكيـة ومجموعـة مـن الرجـال الملتحـين يطلقـون عليهـم الرصـاص بعشـوائية والجـو ملـئ بالدخـان الأسـود المتصاعـد المعكـر للسـماء، حاولـت أن أرمـش بعينـي لأدرك واسـتوعب مـا يحـدث، فـلا الأرض ولا السـماء كـما كانـت و الدّمـاء لونـت الـتراب .

ركضـت للـوراء وركضـت حتـى خـرت ركبتـي تعبـاً وركـض ورائـي أبنـاء خالتـي وزوجهـا ولم أشـعر إلا و ابنـة خالتـي تقـرأ عـلي القـرآن .

حاولـت تهدئتـي وابتسـامتها المرتسـمة عـلى وجههـا المتعرق الشـاحب، دققـت بنظـري لأتاكـد هـل هـذا حقيقـي ؟! .

– هـل أنـا مـا زلـت حيـة أُرزق؟ وهـل سـأرى وجـه أبي وأمـي وأخـي و شـقيقاتي ثانيـة ؟

اقتربـت منـي ابنـة خالتـي الصغـرى لتلمـس وجهـي بيديهـا الناعمتـين، حدّثتنـي بصـوت خفيـض مرتبـك:

– هيا انهضي إنهم وراءنا .

وبينـما هـي تحـذرني إذا بأحـد يركـض والدمـاء تغطـي وجهه ومـا هـي إلا خطـوات و سـقط . يـا الله إنـه جنـدي لقـي حتفـه وهـو ممسـكاً بسـلاحه بإحـكام.

رحمه الله شهيد الواجب وأسكنه الفردوس الأعلى.

تلاحقـت أنفـاسي مسرعـة درت بـرأسي كعقـرب السـاعة نحـو كـوخ خالتـي واتجهـت كالسـهم أركـض نحـوه، دلفـت البـاب وبقيـت مسـتمرة عـلى حصـيرة باليـة ونكسـت رأسي

تحت «الحنبل» الصوفي وبقيت أقرأ كل ما تيسر مِن القرآن الكريم، حتى أدركني الصباح، قررت العودة لحيي الشعبي «حي لعلاوية» حيث الأمان والسكينة بعد ليلة كان الرصاص فيها يصول ويجول فوق بيت الصفيح .

وطيلة طريقي للعودة أمطرت زوج خالتي بالأسئلة:

– مَن هؤلاء يا عمي «حُسين» وكيف لكم أن تسلموا مِن مهاجمتهم لكم ؟

هؤلاء هم «إرهاب»، نحن سكان هذا التجمع أقصد أنا وسكان البيوت القصديرية (حافظين الميم) حتى نتعايش ونعيش فنحن فقراء نسعى للقمة العيش لنسُّد رمق أطفالنا.

قاطعته قائلة:

– يعني الحمد لله لم يتعرض أحدكم للإعتداء ؟

ابتسم زوج خالتي ثم تنهد طويلاً:

– لا بل قُتل الكثير لذلك نحن بعد المغرب لا نغادر بيوتنا مهما كان الظرف، ولا نبتعد أو نحاول الولوج في الغابة، لنأمن شرهم، وعند سماعنا صوت الرصاص نطفيء الاضواء، ونقطع الأنفاس ونقرأ الشهادتين، ولو فتحنا الأبواب صباحاً لا يجب أن تنطق ببنت شفة، فالإرهاب لديهم عيون بكل مكان للأسف؟.. أحيانًا نجد أعضاء بشرية ممزقة هنا وهناك لجنود يبيتون يمشطون المنطقة بكل بسالة وشجاعة غير آبهين بالموت، رحمهم الله جميعا .

لكن للأسف لا يمكننا أن نقترب أو نثور أو نغضب حتى إن توجعنا أو ثرنا يجب أن يكون صوتنا خفيض مرتبك.

هاجمني شعورًا وأنا استمع إليه وكأن قلبي يعتصر حزناً من شعور مخيف من مصير وطني، ونتيجة لذلك فقدت توزاني، وشعرت بدوران شديد برأسي فأغميت لمدة لا أعلمها، وعندما استيقظت لم أعرف إن كنت في فترة الشروق أم في وقت الغروب، فضوء الشمس كان خفيفاً، وكأنه في حالة الغروب أو الشروق، رفعت رأسي للسماء فكانت غائمة والمطر يسقط زخات وكأنها حزينة هي أيضاً على وطني؟ .

الكابوس الذي عشته في بيت خالتي بقي يُرافقني وطيور الحزن فوق رأسي مُحلقةً، والشمس الملتهبة تتعمد حراثة وجهي الجميل الحسن.

الفهرس

الإهداء	05
أحببتُ شرطياً	07
صائد الدمع	15
جريمة عشق	23
سكاكين القهر	27
أسورة قلبي وقيدي الأبدي	28
روح لجسد استثنائي	30
بين حضنين	33
أغلال الذاكرة	39
الطفلة العروس	48
المعلّم عمر سرّ النجاح	55
لقيطة في قبضة اللعنة	61
نهر علم منبعه كتاب	67
سيّد الرهان	70
ليلة الدّم	74